

التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثانى

الحزب الثلاثون

الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثاني

الحزب الثلاثون

الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٨٣م

(* أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ وَكَانَ الْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾)

المفردات :

(أَوَلَمْ يَرَوْا) : الرؤية هنا علمية ، والهمزة لنفى عدم علمهم وتحقيق أنهم يعلمون ، والواو عاطفة على فعل مقدر ، والتقدير : أَغَفَلوا ولم يعلموا ؟ وحاصل معنى الجملة أنهم قد علموا . . .

(خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّى) : المراد ؛ خزائن رزق ربى ونعمه التى يفيضها على الموجودات كافَّة .

(قَتُورًا) : أى مُبالغًا فى التقتير والبخل ، يقال : قتر يقْتِرُ وأقتر وقتَّر : إذا ضيّق النفقة وقللها .

التفسير

٩٩ - (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ...) الآية .

دأب المشركون على إنكار البعث مع وضوح أدلته التى لايُمارِى فيها إلا عنيد مكابر ، ينكر الشمس وهى ساطعة ؛ فنبههم الله تبارك وتعالى فى هذه الآية ، على قدرته العظيمة التى غفلوا عنها ولم يتفكروا فى آثارها !

والمعنى ؛ قد علموا أن من قدر على خلق السموات والأرض من عدم ، وعلى غير مثال سبق فهو قادر على أن يبعثهم ويعيد خلقهم ، كما بدأهم أول مرة ، بل الإعادة أهون عليه كما قال جل وعلا : « وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »(١) .

(وَجَعَلَ لَهُم أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ) :

أى وجعل سبحانه لبعثهم وإعادتهم ، ميقاتًا محدودًا عنده لايعلمه إلا هو ، وهو ميقات محتَّم مَجيئُه ، لاينبغى لأحد الشكُّ فيه ، فضلا عن إنكاره ، وهو يوم القيامة ، لكن المشركين الذين ظلموا أنفسهم ، وكفروا بآيات ربهم ، وجحدوا قدرته وحكمته — لكن هؤلاء المشركين الظالمين ، أصروا على إنكار البعث مع قيام الحجة عليهم ، جحودًا وعنادًا ، كما قال سبحانه :

(فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا) :

أى : فلم يرض هؤلاء الكفرة الظالمون ، إلا مُضيًّا فى كفرهم وجحودهم ، بعد أن دمغتهم الحجة فأزهقت باطلهم .

ولما بينت هذه الآية أن المشركين أفرطوا فى العناد والكفر ، جاءت الآية التى تليها ، لتبين أن هؤلاء المشركين ، أفرطوا فى الشح والبخل كذلك ، فقال عز من قائل :

١٠٠ — (قُلْ لَّوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّى إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ ..)الآية .

أى قل يامحمد لهؤلاء المشركين : لو أنكم تملكون التصرف فى خزائن رزق الله لأمسكتم عن الإنفاق منها ولبَخِلْتُمْ بها فلم تُعطوا أحدًا شيئًا مخافة نفادها ، مع أنها لا تنفَد ولاتفرغ أبدًا ؛ ولكن الإمساك والبخل مركوزان فى طباع الإنسان إلا من وفقه الله وعصمه ؛ قال تعالى : « إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً ، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا . وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً . إِلَّا الْمُصَلِّينَ »(٢) .

(١) سورة الروم ، الآية : ٢٧

(٢) سورة المعارج ، الآيات : ١٩ — ٢٢

ولما كان البخل والشح فى طبيعة الإنسان وجِبِلَّتِهِ ، قال سبحانه :

(وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا) : أى شديد البخل والحرص .

وقد بلغت هذه الآية الكريمة من وصف الإنسان بالشح الغاية القصوى حيث أفادت أنه لو استولى على خزائن رحمة ربه التى لاتحدّ ولا تنفَد ، وانفرد بملكها دون مزاحم له ـ لأمسكها لشدة حرصه وبخله على عباد الله .

(وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾)

المفردات :

(آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ) : أى أدلةً واضحات ، والمراد بها : المعجزات التسع الآتية .

(مَسْحُورًا) : أى مختل العقل من أثر ما سُحِرْتَ .

(بَصَآئِرَ) : جمع بصيرة ، وهى الحجة التى تُبَصِّر بالحق وتهدى إليه .

(مَثْبُورًا) : مُهْلَكًا ، من ثبَر الله الكافر إذا أهلكه ؛ أو مصروفًا عن الخير ، مطبوعًا على الشر ؛ من قولهم : ماثَبرَكَ عن هذا ؟ أى ماصرفك عنه ومنعك ؟ .

(فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ) : أى فأراد أن يزعجهم ليخرجهم من الأرض .

(لَفِيفًا) : أى جميعا . وأصل اللفيف : الجماعة من قبائل شتَّى .

التفسير

١٠١ - (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ...) الآية .

لما حكى الله تبارك وتعالى فى الآيات السابقة ما حكى ، من تعنت المشركين وعنادهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم - سلَّاه سبحانه فى هذه الآية وما بعدها ، بما جرى لكليمه موسى عليه السلام مع فرعون ، وما صنع سبحانه بفرعون وقومه .

والمعنى : ولقد أيَّدْنا موسى بتسع آيات من المعجزات الساطعة ، والحجج القاطعة ، على نبوته وصدقه فيما أخبر به عن ربه ، أرسلناه بهذه الآيات التسع إلى فرعون وقومه وهى - فى أرجح الأقوال وأولاها بالقبول - :

(١) عصاه التى كان يلقيها فإذا هى حَيَّةٌ تسعى .

(٢) ويده التى يدخلها فى جيبه ، ليخرجها بيضاء من غير سوء . والجَيْبُ : هو الفتحة التى فى أعلى الثوب ، تحت الذقن .

(٣) والسنون ، والمراد بها : سنوات القحط والجدب ، بسبب انقطاع الأمطار وانخفاض ماء النيل ، يقال مسَّتْهُمْ سَنَةٌ ، وأَسْنَتُوا : إذا قحطوا وأجدبوا .

(٤) ونقص الثمرات ، بسبب كثرة العاهات والآفات .

(٥) والطوفان ، بسبب المطر الغزير الذى غشَّى منازلهم ومزارعهم .

(٦) والجراد الذى قضى على الزروع والثمار .

(٧) والقُمَّل ، وهو نوع من القُرادِ ، كان يخالط طعامهم وملابسهم وأجسامهم وقيل هو القمل المعروف .

(٨) والضفادع التى ملأت بيوتهم وطعامهم .

(٩) والدم الذى حل محل الماء ؛ أو هو الرُّعاف الذى أصابهم .

وقد تقدمت هذه الآيات كلها فى سورة الأعراف مفصلة [١] فارجع إلى تفسيرها هناك .

قال الحافظ ابن كثير وغيره من أئمة التفسير : هذه الآيات التسع هى المرادة هُنَا ، وهى التى شاهدها فرعون وقومه من أهل مصر ، فكانت حجة عليهم ، فخالفوها وعاندوها كفرًا وجحودًا كما قال تعالى : « فَلَمَّا جَآءَتْهُم آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ . وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ » [٢] .

وهى غير الآيات التى أرسل بها – عليه السلام – إلى بنى إسرائيل ؛ من تظليلهم بالغمام ، وإنزال المنّ والسلوى عليهم ؛ إلى غير ذلك مما أرسل به بعد مفارقتهم بلاد مصر ، مما لم يشاهده فرعون وقومه .

والخطاب فى قوله تعالى : (فَاسْأَلْ بَنِيٓ إِسْرَآئِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ) : لمن يريد أن يتحقق من صدق ما جاء به القرآن عن الآيات التى أيد الله بها موسى حين أرسله إلى فرعون وقومه ، أى فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم بها ، فهم يعرفون مطابقتها لما جاء عنها فى القرآن فإنه مصدق لما بين يديه من التوراة .

وقيل فى معنى الآية : سلهم يامحمد إذ جاءهم موسى بهذه الآيات ، سؤال تقرير ليعرف اليهود صحةَ ما يقوله محمد اهـ . والظاهر الأول .

ويجوز أن يكون خطابًا لموسى عليه السلام على تقدير القول ، أى : آتينا موسى هذه الآيات التسع فقلنا له : اسأل بنى إسرآئيل ، أى اطلبهم ياموسى من فرعون ، كقوله : « فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَآئِيلَ » [٣] .

وهناك أوجه أخرى ذكرها الآلوسى فى تفسيره . ثم هنا كلام مطوىّ يشعر السياق به ، ويدل المقام عليه . أى فذهب موسى إلى فرعون وبلغه رسالة ربه ، مؤيدا بالمعجزات الدالة على صدقه .

---

(١) فى الآيات ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٣٠ ، ١٣٣

(٢) سورة النمل ، الآيتان : ١٣ ، ١٤

(٣) سورة الأعراف ، من الآية : ١٠٥

(فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ) : فى سخرية وكبرياء (إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا) : أى سُحِرْت فاختل عقلك ، ولذا اختل كلامك وادعيت ما ادعيت ، وهذا كقوله : « إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُون »[1] .

وقيل : (مَسْحُورًا) هنا معناه : ساحرًا .. ويؤيده قوله : « إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ، يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ »[2] .

١٠٢ - (قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَآئِرَ..) الآية .

هذا رد كليم الله على عدوّه وعدوّ الله ، بعد أن بلغ الجهد هو وأخوه فى دعوته ، واستنفدوا كل قول ليِّن فى سبيل تذكيره ، خوفًا من أن يفرط عليهم أو يطغى ، وصبرا عليهما السلام صبر أُولى العزم من الرسل ، فلم يزدد عدوّ الله إلا جحودًا وعنادًا ، مع أن هذه المعجزات لا يقدر عليها إلا رب السموات والأَرض ، رب موسى وهارون .

هنالك قال موسى عليه السلام لفرعون – وقد يئس من إيمانه : لقد علمت يا فرعون أن هذه المعجزات من عند الله تعالى ، أوجدها حججا ساطعةً على صدق فيما دعوتك إليه من الإيمان بمالك الملك ربى وربك . . .

(وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا) : المراد من الظن هنا العلم ، وقد عبر به موسى عنه تلطفًا مع فرعون ، أى وإنى لأَعلم أنك يا فرعون هالك ، أو مصروف عن الخير إلى الشر بسوء فعلك وطغيانك .

وقرىء : (لَقَدْ عَلِمْتُ) بضم التاء . . فعلى هذه القراءة يكون موسى قد ردّ بها عن نفسه دعوى أنه ساحرٌ أَو مسحورٌ كما زعم فرعون عدو الله ، أى قال موسى لفرعون لقد علمت أنا حَقَّ العلم أن الذى أنزل هذه الآيات هو خالق السموات والأَرض ومدبرهما ، وأنى لست بساحر ولا مسحور كما زعمت ، : وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالآيات التسع : الأُصول العامة التى أنزلها الله فى الكتب الإلٰهية للعقائد والشرائع السماوية كلها ، وجعلها مشتركة بين

(١) سورة الشعراء ، من الآية : ٢٧

(٢) سورة الشعراء ، من الآيتين : ٣٤ ، ٣٥

جميع الرسالات والنبوات ، وإليها يشير قوله تعالى : « إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَام » . ويؤيد هذا مارواه جمهرة من أئمة الحديث ، عن صفوان بن عسَّال رضى الله عنه أن يهوديَّيْن قال أحدهما لصاحبه : انطلق بنا إلى هذا النبي نسأله ، فأتياه صلى الله عليه وسلم ، فسألاه عن قول الله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ » . فقال عليه الصلاة والسلام : لا تشركوا بالله شيئًا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا تسرقوا ، ولا تسحروا ، ولا تأكلوا الربا ، ولا تمشوا ببرىء إلى سلطان ليقتله ، ولا تقذفوا محصنة ، ولا تَفِرُّوا من الزحف – وعليكم يا يهود خاصة ألا تعتدوا فى السبت – فقبلا يديه ورجليه وقالا : نشهد أنك نبى ، قال : فما يمنعكما أن تسلما ؟ قالا : إن داود دعا الله أن لا يزال فى ذريته نبى ، وإنا نخاف إن أسلمنا أن تقتلنا اليهود[1] .

١٠٣ – (فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا) :

أى استبد بعدو الله مكره ، فأراد أن يزعج موسى وقومه ليخرجهم من أرض مصر التى هم بها ، أو من الأرض جميعًا ، ليستأصلهم فلا يُبقى منهم أحدًا ، فعكسنا عليه مكره ، فأغرقناه ومن معه ، فلم نبق منهم أحدًا . ونجيناه ببدنه ليكون لمن خلفه آية[2] . وبهذا أخرجناه من أرضه أفظع إخراج « وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ »[3] .

١٠٤ – (وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ . . .) الآية .

وقلنا من بعد إغراق فرعون – على لسان موسى – لبنى إسرائيل ، الذين أراد فرعون استفزازهم – قلنا لهم : اسكنوا الأرض التى أراد فرعون أن يخرجكم منها .

(فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ) : فإذا جاء وعد الدار الآخرة بعد قيام الساعة :

(جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا) :

جئنا بكم أنتم وهم مختلطين ، لنحكم بينكم ، ونميز سعداءكم من أشقيائكم .

---

(١) انظر تفسير : الطبرى ، والقرطبى ، والآلوسى .
(٢) اقتباس من الآية : ٩٢ من سورة يونس .
(٣) سورة فاطر ، من الآية : ٤٣

قال الحافظ ابن كثير : وفى هذا بشارة محمد صلى الله عليه وسلم بفتح مكة ، مع أن السورة مكية نزلت قبل الهجرة ، وكذلك وقع ؛ فإن أهل مكة هموا بإخراج الرسول منها كما قال تعالى : « وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا »[1] . ولهذا أورث الله رسوله مكة فدخلها عنوةً – على أشهر القولين ، وقهر أهلها ثم أطلقهم حلمًا وكرما ؛ كما أورث الله القوم الذين كانوا يُستضعفون من بنى إسرائيل فى مشارق الأرض ومغاربها ، وأورثهم بلاد فرعون وأموالهم وزروعهم وثمارهم وكنوزهم كما قال : « كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ »[2] .

(وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ ۩)

المفردات :

(وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ) : الحق ؛ الأمر الثابت الذى لا يتبدل ولا يزول ، ضد الباطل .

(فَرَقْنَاهُ) : أنزلناه مفرَّقا منجما ، أو أنزلناه مبينا موضحا .

(عَلَى مُكْثٍ) : أى على تؤدة وتأنٍّ . (يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ) : يقعون على أذقانهم .

(إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا) : أى إن الشأن فى وعد ربنا أنه كائن لا محالة .

---

(١) سورة الاسراء ، من الآية : ٧٦

(٢) سورة الشعراء ، والآية : ٥٩

التفسير

١٠٥ - (وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ . . .) الآية .

قال الآلوسى : هذا عود إلى شرح حال القرآن الكريم ، فهو مرتبط بقوله تعالى : « قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ » . وهكذا العرب ، تأخذ فى شىء وتستطرد منه إلى آخر ، ثم إلى آخر . . ثم تعود إلى ما ذكرته أولًا ، والحديث شجون .

والمعنى : وبالحق أنزلنا هذا القرآن المجيد من اللوح المحفوظ ؛ وبالحق نزل على عبدنا ورسولنا محمد ؛ فهو مؤيد بالحق محفوظ بحفظنا له وحراستنا إياه ، حال إنزاله على رسولنا محمد ، وما بعدها إلى أن تقوم الساعة ، لاتعتريه زيادة عليه ولا نقص منه ؛ وصدق منزله إذ يقول : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ »[1] . ويقول : « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ »[2] .

وقيل : المراد بالحق ؛ الحكمة الإلٰهية المقتضية لإنزاله ونزوله . والمعنيان متلازمان . وأيًّا كان المعنى المراد ، فلا ريب أن هذا الكتاب الحكيم مشتمل على دلائل التوحيد ، وصفات الجلال والإكرام ؛ وعلى تعظيم الملائكة ، وإقرار النبوات ، وإثبات المعاد ؛ وعلى أصول الإسلام والشرائع الثابتة التى لا تتبدل ولا تُنسخ بحال من الأحوال ، ولا فى زمن من الأزمان .

فلهذا استحق أن يصفه البارى سبحانه ، بأنه أنزله بالحق محروسًا بعنايته حتى وصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفى هذا المعنى يقول الله تعالى : « وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ . وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ »[3] .

---

(١) سورة الحجر ، الآية : ٩ (٢) سورة فصلت ، الآية : ٤٢

(٣) سورة الشعراء ، الآيتان : ٢١٠ ، ٢١١

ولما بين سبحانه حال القرآن الكريم فى إنزاله ونزوله ، بيّن حال من أُنْزِلَ القرآن عليه فقال مخاطبًا إياه صلى الله عليه وسلم :

(وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) :

أى : وما أرسلناك – يا محمد – إلى الناس كافة إلا مبشِّرًا للمطيعين منهم بالثواب ، ومنذرًا للعاصين منهم بالعقاب ، فما عليك إلا البلاغ بالتبشير والإنذار ، وليس عليك إكراه أحد منهم فى الدين ، فقد تبين الرشد من الغىّ .

١٠٦ – (وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ . . .) الآية .

أى وأنزلنا عليك – يا محمد – قرآنًا عظيمًا أوحيناه إليك وأيدناك به – أنزلناه منجمًا مفرقًا ، على حسب الأحداث والمناسبات ؛ لتبلِّغه الناسَ على تؤدة وتأنٍّ ، ليكون أيسر للحفظ ، وأعون على الفهم ، وأبين لوجوه الإعجاز به ؛ فى هدايته وبشارته ونذارته ، ولذا أكد هذا المعنى فقال :

(وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا) : أى نزلناه بحسب الحوادث والمصالح ، حيث لم ينزل جملة واحدة ، للحِكَم التى مر بيانها . وقد نزل القرآن الكريم مفرقا حسب الحوادث المقتضية لنزوله فى مدة الرسالة المحمدية ، وهى ثلاثة وعشرون عامًا تقريبًا .

وهذا التنزيل المفرق خاص بالقرآن الكريم ، دون سائر الكتب السابقة ، لأنه أُنزل على خاتم النبيِّين والمرسلين ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، فكان لهذا آخر كتاب أنزل من عند الله ليبقى حتى تقوم الساعة ، وقد تكفَّل الله بحفظه ، وجعل من أسباب حفظه نزوله مفرَّقًا حسب الوقائع ، حتى يكون أيسر لحفظه ؛ وأعون على فهمه ، وأدعى إلى الحرص على نصوصه ، أما غيره من الكتب السماوية فقد نزل كل منها جملة واحدة ، ولم يتكفل الله تعالى بحفظها كما تكفل بحفظ الكتاب العزيز ، لأنها كانت موقوتة بأزمنتها ، ومن هنا وقع فيها التغيير والتبديل بعد أن وضح الحق ، وأسفر الصبح لذى عينين .

ولما أصر أهل مكة على الكفر بالقرآن الكريم ، قال الله تبارك وتعالى تسلية لنبيّه صلى الله عليه وسلم ، ووعيدًا للكافرين وتهديدًا لهم :

١٠٧ - (قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا . . .) الآية .

أى قل أيها الرسول لهؤلاء الكافرين بهذا القرآن العظيم : سِيَّانِ إيمانكم بهذا القرآن وعدم إيمانكم به ، فإن إيمانكم به لا يزيده كمالا ، وعدم إيمانكم به لا يورثه نقصًا ، فهو حق فى نفسه ، أنزله الله تعالى ونوه بذكره فى سالف الأزمان ، فى كتبه المنزلة على رسله - ولذا قال :

(إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا) :

المقصود بالذين أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قبل القرآن الكريم ، مؤمنو أهل الكتاب من علمائهم ، كعبد الله بن سلام وأضرابه .

والمعنى : إن العلماء الذين قرءوا الكتب السماوية من قبل نزول القرآن وخروج النبى صلى الله عليه وسلم ، وعرفوا حقيقة الوحى وأمارات النبوة ، وتمكنوا من التمييز بين الحق والباطل ، والمحق والمبطل ، ورأوْا فيها نعتك ونعت ما أنزل إليك ، هولاء العلماء إذا يُتْلَى القرآن عليهم يقعون على وجوههم ساجدين لله تعالى ، تعظيمًا لأمره ، وشكرًا لله سبحانه على إنجاز ما وعد به فى تلك الكتب من بعثتك ، ومن الحق الذى جئت به .

والتعبير عن سجودهم على وجوههم بخُرورِهِمْ للأذقان ، للإيذان بكمال تذلُّلهم وخضوعهم وشكرهم لله على إنزال هذا الكتاب العظيم .

وقيل المراد المبالغة فى التحامل على الجبهة والأنف حتى كأنهم يلصقون الأذقان بالأرض . قال الآلوسى : وهو وجه حسن جداً .

١٠٨ - (وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا) :

أى : ويقولون وهم يتضرعون إلى الله تعالى فى سجودهم ودعائهم : (سُبحَانَ رَبِّنَا) أى تنزه ربنا تنزيها عن خلف وعده ، وعن كل مالا يليق به مما يفتريه الكفرة ، إن الشأن فى وعد ربنا أنه كائن لامحالة .

ولا يخفى ما فى عنوان الربوبية ، وإضافتهم أنفُسَهم إليه - مكرراً - من اعتزازهم بالعبودية لله تعالى .

وفى الآية دليل على استحباب التسبيح فى السجود كما دلت السنة على ذلك ، فنى صحيح مسلم وغيره عن عائشة رضى الله عنها قالت : «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول فى سجوده وركوعه : سبحانك اللهم وبحمدك ، اللهم اغفر لى ».

١٠٩ - (وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا) :

ويقعون على وجوههم ساجدين لله وهم يبكون ، ويزيدهم القرآن تواضعا لله وخضوعا ، كما يزيدهم علما ويقينا بالله تعالى .

وإنما كرر الخرور للأذقان لاختلاف السبب ؛ فإن الأول لتعظيم أمر الله تعالى وشكره على إنجاز وعده ؛ والثانى لشدة تأثرهم باستماع القرآن ومواعظه . ودلت الآية على مدح البكاء عند تلاوة القرآن وسماعه . من خشية الله تعالى ، ولو كان التالى للقرآن مصلّيًا . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يَلجُ النارَ رجلٌ بكَى من خشية الله ، حتى يعود اللبن فى الضَّرع ، ولا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم » رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح . وعن عبد الله ابن الشِّخِّير رضى الله عنه قال : « أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى ولجوفه أزيز كأزيز المِرْجَل من البكاء [1] » .

(قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾)

(١) قال النووى فى رياض الصالحين : حديث صحيح ، رواه أبو داود ، والترمذى فى الشمائل ، بإسناد صحيح ، والأزيز : صوت البكاء ، والمرجل - كنبر - : القدر .

المفردات :

(ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمٰنَ) : أى سَمُّوا الإلٰه باسم الله أو باسم الرحمن ، فهو مسمًّى بهما معًا ، أو نادُوه بأى الاسمين شئتم ، فالدعاءُ يطلق على التسمية وعلى النداء .

(وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ) : المراد ولا تجهر بالقراءة فى صلاتك .

(وَلَا تُخَافِتْ بِهَا) : أى ولا تُسِرَّ بها . والمخافتة ضد المجاهرة ، يقال : خفت الرجل بصوته : إذا لم يرفعه ، وخافت بقراءته : إذا لم يرفع صوته بها . وقيل الصلاة هنا : الدعاءُ .

(وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً) : أى واقصد أو اسلك بين الجهر بقراءتك والإسرار بها طريقا وسَطًا .

(وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِىٌّ مِنَ الذُّلِّ) : أى وليس له سبحانه ناصر يحميه من الذل ؛ لأنه عزيز بنفسه .

(وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً) : أى وعظمه تعظيما يليق به .

التفسير

١١٠ - (قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمٰنَ أَيًّامًّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَآءُ الْحُسْنَى . . .) الآية .

أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ذات يوم ، فدعا الله تعالى فقال فى دعائه : يا ألله يارحمن ، فقال المشركون : انظروا إلى هذا الصابئ: ينهانا أن ندعو إلٰهين وهو يدعو إلٰهين : فنزلت » .

وقيل : إن اليهود قالت : ما لنا لا نسمع فى القرآن اسماً هو فى التوراة كثيرٌ ؟ يعنون الرحمن : فنزلت .

والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين أو اليهود : إن هذين الاسمين الكريمين : الله والرحمن ، اسمان لمسمًّى واحد هو الإله المعبود بالحق جل جلاله ، فسمُّوه أو نادوه أو اذكروه بكل منهما أو بأيِّهما .

وليس الدعاء مقصورا على هذين الاسمين، فقد قال تعالى: «وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا»[1]. وقال صلوات الله وسلامه عليه فيما رواه الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة رضى الله عنه: «إن لله تسعةً وتسعين اسماً - مائةً إلا واحدا - من أحصاها دخل الجنة، إنه وتْر يحب الوتر».

ولم تذكر الأسماء التسعة والتسعون فى رواية الشيخين، ولكنها ذكرت فى رواية الترمذى وابن حِبّان والحاكم وغيرهم. وهذا نصُّها فى جامع الترمذى[2] عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن لله تسعة وتسعين اسمًا مائةً غير واحدة[3] من أحصاها دخل الجنة: هو الله الذى لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤْمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلى الكبير الحفيظ المُقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوى المتين الولى الحميد المُحْصِى المبدئ المعيد المحيى المميت الحى القيوم الواجد الماجد الواحد الصمد القادر المقتدر المقدم المؤَخر الأَول الآخر الظاهر الباطن الوالى المتعالى البر التواب المنتقم العفو الرؤُوف مالك الملك ذو الجلال والإكرام المُقْسِط الجامع الغنى المغنى المانع الضار النافع النور الهادى البديع الباقى الوارث الرشيد الصبور».

وليس المقصود من الحديث حصر أسمائه الحسنى - تبارك وتعالى - فى هذه التسعة والتسعين، بدليل حديث ابن مسعود الذى أخرجه أحمد وصححه ابن حِبان: «أسأَلك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته فى كتابك، أو علمته أحدا من خلقك، أو استأْثرت به فى علم الغيب عندك... الحديث»[4]. وإنما المقصود بشارة من حفظ هذه الأَسماء، ودعا الله بها بأَنه من أهل الجنة، والحكمة فى الاقتصار على هذه العدَّة: أنها

---

(١) سورة الأعراف، من الآية: ١٨٠ (٢) اختلفت الروايات اختلافا كثيرا فى سرد الأسماء، ورواية الترمذى هذه هى أقرب الروايات إلى الصحة، وعليها عول غالبا من شرح الأسماء الحسنى كما قال الحافظ فى كتاب الدعوات من فتح البارى. (٣) أى غير تسمية واحدة.

(٤) تمامه: أن تجعل القرآن ربيع قلبى، ونور بصرى، وجلاء حزنى، وذهاب همى.

الأسماء الجوامع ، الدالة على ماعداها ، مما لا يحصيه إلا الله ـ تباركت أسماؤه وجلت آلاؤه ؛ وأنها جمعت من معانى الجلال والكمال مالم يجمعه غيرها .

والحكمة فى تخصيص هذين الاسمين بالذكر ، أن لفظ الجلالة عَلم على الذات الأقدس ، واسم الرحمن أنسب بالدعاء . فقد كتب على نفسه الرحمة .

هذا ، وقد اتفق الثقات من العلماء على أن أسماء الله تعالى توقيفيَّةٌ ، فلا تجوز تسميته إلا بما سمى به نفسه : مما جاء فى كتابه عز وجل ، وصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً) :

روى الشيخان وغيرهما عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : نزلت هذه الآية ورسول الله صلى الله عليه وسلم مختَفٍ بمكة ، فكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن فإذا سمع ذلك المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به ، فقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم :(وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ) أى بقراءتك ، فيسمع المشركون فيسُبوا القرآن (وَلَا تُخَافِتْ بِهَا) :عن أصحابك فلا تسمعهم حتى يأخذوا عنك .

(وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا) : بقول بين الجهر والمخافتة . ا ﻫ .

والمراد بالصلاة القراءة التى هى أحد أركانها . والظاهر أن المراد بالقراءة ما يعم البسملة وغيرها . ويروى أن أبابكر رضى الله عنه كان إذا صلى بالليل خفض صوته جدا ويقول : أناجى ربى وقد علم حاجتى ؛ وكان عمر رضى الله عنه إذا صلى من الليل رفع صوته جدا ويقول : أطرد الشيطان وأوقظ الوسنان . فلما أنزل الله هذه الآية قال النبى صلى الله عليه وسلم لأبى بكر : ارفع من صوتك شيئًا ؛ وقال لعمر اخفض من صوتك شيئاً فالقراءة بين المخافتة والجهر هى الوسط ؛ وخير الأمور أوسطها ، ومن الأحكام العامة لدى الخاصة والعامة : الجهرُ فى ركعتى الفجر والجمعة والعيدين ، وفى الركعتين الأوليين من المغرب والعشاء . ولا ريب أن الجهر فى هذه الصلوات من الشعائر المتواترة فى الشريعة الإسلامية .

وقيل : الصلاة هنا بمعنى الدعاء : لما أخرج الشيخان وغيرهما عن عائشة عنها قالت : «إنما نزلت هذه الآية : (وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا) فى ومعروفٌ أن الصلاة فى أصل اللغة هى الدعاءُ .

ولما أثبت سبحانه الأسماءَ الحسنى لذاته الكريمة نزه ذاته عن النقائص .

١١١ - (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا . . .) الآية .

وهى رد لمزاعم اليهود والنصارى وبنى مُليح من كفار العرب؛ إذ قالوا عزير والمسيح ابن الله والملائكة بنات الله ؛ سبحانه وتعالى عما يقولون علوًّا كبيرا .

ونفىُ اتخاذ الولد ظاهر فى نفى التَّبَنِّى ، ويعلم منه نفى ولد الصلب عن من باب أولى . وقد نفى ذلك صريحا فى قوله سبحانه : « لَمْ يَلِدْ »[١] وقوله « أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ »؟[٢]

(وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ) : فكيف يتخذ المشركون معه آلهة يعب اعتقادهم أنه هو الذى خلق هذا الملك العظيم وحده ، ودبره بحكمته ، دو كما حكى الله عنهم ،يقول سبحانه : « وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ لَيَقُولُنَّ اللهُ »[٣] .

(وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِىٌّ مِّنَ الذُّلِّ) :أى ليس له سبحانه ناصر يحميه من الذل ؛ لا عزيز بنفسه ؛ فليس بحاجة إلى أن يوالى أحدا أو يخالفه ، من أجل مَذلَّةٍ به ، لي

وفى حمده تعالى على هذا التنزيه إيذان بأن المستحق للحمد العظيم ، مَن دون غيره ، ولذا عطف على الأمر بحمده الأمر بتكبيره فقال :

(وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا) :أى وعظمه تعظيما بليغا مؤكدا يليق بجلال وجهه وعظيم

والتكبير ، أبلغ كلمة للعرب فى معنى التعظيم والإجلال .

---

(١) سورة الإخلاص ، من الآية : ٣

(٢) سورة الأنعام ، من الآية : ١٠١

(٣) سورة الزمر ، من الآية : ٣٨

وفى الآية تنبيه على أن العبد ـ وإن بالغ فى التنزيه والتمجيد ، وأجتهد فى الطاعة والتحميد ـ ينبغى أن يعترف بالقصور فى حقه ، والتقصير فى حمده وشكره ، سبحانه لا نحصى ثناءً عليه ، هو كما أثنى على نفسه .

هذا وَرَوى عَمْرُو بنُ شعيب عن أبيه عن جده قال : «كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا أفصح الغلام من بنى عبد المطَّلِب ، علمه هذه الآية : (وقل الحمد لله) إلى آخرها » وسماها عليه الصلاة والسلام آية العز ـ كما أخرج أحمد والطبرانى عن مُعاذ بن جبل رضى الله عنه .

سورة الكهف

تمهيد :

سورة الكهف – ويقال لها سورة أصحاب الكهف – مكية . وهى الثامنة عشرة فى ترتيب المصحف وآياتها عشر ومائة . وقد افتتح الله تعالى كتابه بالحمد فى سورة الفاتحة ثم افتتح بالحمد كذلك أربع سور مكيات ، اشتملت كل سورة منهن على أصول الإسلام الثلاثة : التوحيد ، والرسالة ؛ والبعث ، وهى أهم مقاصد القرآن المجيد .

الأولى : الأنعام ، وهى آخر سورة فى الربع الأول من هذا الكتاب العزيز ، والثانية سورة الكهف وهى مشتركة بين آخر الربع الثانى ، وأول الربع الثالث ،والثالثة والرابعة سبأ وفاطر ، وهما آخر الربع الثالث . ومما يذكر فى مناسبتها لسورة الإسراء : افتتاح تلك بالتسبيح ، وافتتاح هذه بالتحميد . والتسبيح والتحميد أخوان مُتَلَازمان فى ميزان الأعمال ، وفى كثير من الأحوال . ومن هذا التآخى سبحان الله والحمد لله ؛ ومنه قوله تعالى : « فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ »[1] . ومن المناسبات التشابه بين اختتام تلك وافتتاح هذه ؛ فإن فى كل منهما حمدًا ،وهناك مناسبات أخرى يدركها القارئ .

ابتدأ الله تبارك وتعالى هذه السورة الكريمة بالثناء على ذاته المقدسة ؛ لإنزاله كتابه العزيز على عبده ورسوله الكريم محمد صلوات الله وسلامه عليه ، كتابا مستقيما لا اعوجاج فيه ولا زيغ ، يهدى به إلى صراط مستقيم ، نذيرا للكافرين وبشيرا للمؤمنين ، ولما حمَّل الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه من الحزن على إعراض قومه – مالا يُطيق – قال له ربه : « فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا » (٦) يعاتبه على إجهاد نفسه فوق طاقتها رحمةً به ، فما عليه إلا البلاغ ، وقد بلغ « فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَّمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ » (٢٩) . ثم قصَّ الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم قصصا من إنباء الغيب ، فى كل قصة منها عبرة وتذكرة ، وتقريرٌ لمقصد من مقاصد القرآن الكريم فى الدعوة إلى الهدى والحق :

(١) سورة النصر ، من الآية : ٣

(١)وأولى هذه القصص : قصة أصحاب الكهف الذين سميت باسمهم ، واختصت بذكرهم فلم تذكر فى سورة سواها . وفيها يتجلى الإيمان وآثاره إذا خالطت بشاشته القلوب ، ولم تخش إلّا علّام الغيوب . وإذًا فلا ترضى بغير الله بديلا ، وقد ذكر الله تبارك وتعالى قصة أصحاب الكهف برهانا عمليا حقا على أن البعث حق فى يوم لا ريب فيه « وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا » (٢١).

(٢)وثانية القصص :قصة الرجلين صاحبى الجنتين : أحدهما غنى كافر يعتز بماله وبنيه ، ويتكبر على أخيه ؛ ويكفر بربه الذى خلقه من تراب ثم سواه رجلا ، ويظن أن جنته لن تبيد أبدا . وصاحبه فقير صابر ، راض بقضاء الله يرى أن رضا الله كنز لايفنى ، وعز لا يبلى ، فكانت العاقبة له ، والندم والخسران لصاحبه ، الذى اغتر واستكبر « هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا » (٤٤) .

(٣)والثالثة : قصة أبى البشر آدم عليه السلام مع عدو الله وعدو آدم ؛ وفيها التحذير منه ومن ذريته وأنصاره وشيعته . ومنها أن إبليس كان من الجن ، ولكنه انضم إلى الملائكة فصار كأنه منهم فى عبادته لله وطاعته له ؛ فلما أمره الله تعالى بالسجود لآدم مع ملائكته ، غلب عليه غروره وكبرياؤه ، فأبى واستكبر ، فحذّر الله عباده منه ومن فتنته ، وبيّن أنه عدو لأبيهم من قبل ، فمن المحال أن يكون صديقًا لأحد من ولده « أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا » (٥٠). ولا يخفى أن التنبيه على أن إبليس كان من الجن ، خاص بهذه السورة ، لم يذكر فى غيرها من السور التى ذكرت قصة سجوده لآدم عليه السلام ؛ وسيأتى تحقيق المراد من قوله تعالى : « كَانَ مِنَ الْجِنِّ » .

(٤)والرابعة : قصة موسى كليم الله مع العبد الصالح ،وهى مما اختصت به هذه السورة أيضًا ، فلم تذكر فى سورة سواها . وفيها : أن عالِمَ الغيب والشهادة سبحانه ، يُظهر مَنْ شاء من الصالحين من عباده – على لَمَحات من غيبه المكنون ، ويأذن لهم أن يبوحوا بها فى حدود إلّهية لا يتجاوزونها ، ولحكم ربّانية قد أحاط بها ؛ لئلا يَدَّعِىَ مُدَّع أن الله أعلمهُ شيئًا من غيبه ، إلا إذا جاء بسلطان بيِّن من لدن عالم الغيب والشهادة ، وحسبنا برهانًا على

ذلك أن العبد الصالح لم يعرفْ موسى عليه السلام إلا بعد أن عرَّفه موسى بنفسه حين التقيا بمجمع البحرين وقال له العبد الصالح : أنت موسى نبي بنى إسرائيل ؟ قال : نعم ، كما فى حديث الصحيحين - ولو كان يعلم من الغيب غير اللمحات التى أطلعه الله عليها لعرف موسى قبل أن يسأله مستفهمًا .

وفى قصة موسى والعبد الصالح : فضل الرحلة فى طلب العلم ، واحتمال مشاق الأسفار فى طلبه ؛ وفيها تواضع المتعلم للمعلم ، ولو كان المتعلم أفضل من معلمه ؛ وفيها صبر العالم ورفقه بمن يعلِّمه ، وتنبيهه إذا غَفَل ، وتحذيره أن يعود إلى مثل ما غفل عنه ؛ وفيها أن علم الله تعالى لا نهاية له ، وأن العالم إذا سئل : من أعلم الناس ؟ لا يقول : أنا ، بل يرد العلم إلى الله تعالى ، ولو كان نبيًّا ورسولًا من أولى العزم . . . وسيأتى بيان مأخذ ذلك فى هذه القصة .

(٥) والقصة الخامسة : قصة ذى القرنين ، وقد مكن الله له فى الأرض وآتاه من كل شىء سببًا فساح فى الأرض ، واستعان بهذه الأسباب على بسط سلطانه بالعدل والإحسان ، حتى بلغ مغرب الشمس ثم مشرقها - فى رأى العين - ودعا إلى الله فى كل رحلة يرحلها . وكان غياثا للمظلومين وعونا لهم ، وكان مثلًا صالحا فى كل أقواله وأعماله وهدايته إلى الخير ، حتى فتح الله به مغاليق الأمور ، وأصلح كثيرا من الفساد فى الأرض . ثم كان من آيات الله على يديه أن أقام سد يأجوج ومأجوج بين جبلين مرتفعين ارتفاعا عظيما ، وهنالك وجد « قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا » (٩٣) استغاثوا به من فساد يأجوج ومأجوج وإغاراتهم التى لا تنقطع : فبنى لهم هذا السد الحصين المنيع ، دون أن يأخذ منهم أجرًا ، قائلا : « مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا » (٩٥). وهذا مثال من المُثُل العليا فى التعاون على البر والتقوى ، ابتغاء وجه ربه الأعلى . ولما أتم الله على يدى ذى القرنين بناء هذا السد الحصين المنيع ، الذى عجزت يأجوجُ ومأجوجُ أن يعلُوه ، لعظم ارتفاعه وملاسته ، أو ينقبوه ؛ لعظم تخانته وصلابته - لمَّا أتم الله ذلك على يديه - حمد الله وشكره قائلًا : « هَٰذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا » (٩٨) .

قد اشتملت هذه السورة أيضًا على مقاصد أُخرى لاتنفرد بها ، بل يشاركها فيها غير السور . ومن هذه المقاصد : التحذير من فتنة الحياة الدنيا وزينتها « وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا »(٤٥) «الْمَالُ والْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا » (٤٦) .

وختمت السورة الكريمة بالحث على إعداد العدة للقاء الله تبارك وتعالى بالعمل الصالح – وبه لقاؤه – « فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا » (١١٠) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾)

المفردات :

(وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا) : العوج – بكسر العين وفتحها – : الميل والانحراف عن الاستقامة ، سواء كان أو معنويا . وقيل يختص مكسور العين بالمعانى ، ومفتوحها بالأعيان : فيقال : فى رأيه أَوْ قولِه عِوج ، وفى عصاه عَوَج . والمراد نفى العيب والخلل عن القرآن الكريم لفظًا ومعنى .

(قَيِّمًا): أى مستقيما ؛ أو كفيلا ؛ أو مُهَيْمِنا .

(لِيُنْذِرَ) : الإنذار ؛ التحذير مع التخويف . ضد التبشير .

(بَأْسًا) : أى عذابا . وأصل البأس : الشدة فى الحرب .

(أَجْرًا حَسَنًا) : أى جزاء كريما ، والمراد الجنة ونعيمها الدائم .

التفسير

١ - (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِىَ أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ . . .) الآية .

أى الثناء الجميل مستحق لله الذى أنزل على عبده محمد صلى الله عليه وسلم كتابه المعروف بالكمال من بين الكتب السماوية ، وَلَوْ لَمْ يُضَفْ إلى مُنزله جل وعلا .

وفى حمده تعالى ذاتَه المقدسةَ على إنزال هذا الكتاب العزيز - تنويه بشأن ذلك الكتاب وعلوّ مكانه . وفى التعبير عن الرسول عليه الصلاة والسلام بالعبد ، مضافا إلى ضمير الجلالة - تشريف له صلى الله عليه وسلم أىُّ تشريف . وإشعار بأن شأن الرسول أن يكون عبدًا لله الذى أرسله ، لا كما زعمت النصارى فى شأن عيسى عليه السلام .

(وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا) :

أى ولم يجعل الله سبحانه فى كتابه شيئًا من العوج : بنوع اختلال فى نظمه ، أو تناقض أو اضطراب فى معناه ، أو انحراف عن دعوته إلى الهدى والحق ؛ بل جعله تعالى قَيِّمًا أى معتدلا مستقيما كما قال :

٢ - (قَيِّمًا لِّيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِن لَّدُنْهُ . . .) الآية .

وفائدة الجمع بين نفى العوج وإثبات الاستقامة - وربما كان فى أحدهما غنًى عن الآخر - فائدة الجمع بينهما التأكيدُ ؛ فرب مستقيم مشهود له بالاستقامة ، ولكنه لا يخلو من أدنى عوج عند الفحص والبحث . أو جعله تبارك وتعالى مهيْمِنا على سائر الكتب السماوية ، مبيِّنا للحق فيها قبل تحريفها ، أو جعله - جلت آلاؤه - كفيلا بمصالح العباد الدينية والدنيوية وببيانها لهم ، كشأن القيم على الأمور الكفيل بها ؛ لاشتماله على ما ينتظم به المعاش والمعاد بالقسطاس المستقيم ، لا إفراط فيما اشتمل عليه من التكاليف حتى يشق على العباد ، ولا تفريط فيه حتى يحتاج إلى كتاب آخر يكمله ؛ فكان ذلك وصفا له بالتكميل بعد وصفه بالكمال .

وصدق منزله إذ يقول : « مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِن شَىْءٍ »[1]. ولا عَجَب إذن أن يكون هذا الكتاب المبينُ خاتمَ الكتب ، كما أن من أنزله الله عليه هو خاتم النبيين ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ؛ ولاشك أن سلامته من العوج برهان على أنه من عند الله ، وشاهد على نبوة من أُنزل عليه ، وصدق الله إذ يقول : « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا »[2]. أنزل الله تعالى كتابه لينذر الكافرين به ويحذرهم عذابًا شديدًا صادرًا من عنده ، عاجلا أو آجلا جزاء كفرهم بكتابه وتكذيبهم له .

(وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا) :

أى ويبشر المؤمنين بهذا القرآن ، الذين صدقوا إيمانهم وأيدوه بالأعمال الصالحة المبينة فى تضاعيفه ، يبشرهم – بأن لهم أجرًا حسنا ، والمراد به الجنة وما فيها من النعيم المقيم والثواب العظيم ، ويؤيد كونَ المراد بالأجر الحسن الجنةَ . قوله عز من قائل :

٣ – (مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا) :

أى مقيمينَ فى أجرهم وهو الجنة خالدين فيها أبدًا ، لا يتحولون عنها ولا يزولون منها ؛ إذ لاانتهاء لمكثهم وخلودهم ، فضلا من الله ونعمةً « وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ »[3] .

وتقديم الإنذار على التبشير ؛ للعناية بزجر الكفار عما هم عليه من كفر وضلال مع مراعاة تقديم التخلية على التحلية ، وذلك نوع من بديع الكلام ، بعد صدق المعنى وجزالته . ومصاحبة الأعمال الصالحة للإيمان الحق شرط لنيل الأجر الحسن ؛ فإن الإيمان من غير العمل الصالح الذى شرعه الله تعالى ورضيه ، كالشجر الذى لا ظل له ولا ثمر كما أن العمل الصالح الذى لا يُبنى على الإيمان الحق ، وفق ما جاء به الكتاب المبين ، وبُعث به خاتم النبيين – لا وزن له عند الله تعالى .

---

(١) سورة الأنعام ، من الآية : ٣٨

(٢) سورة النساء ، من الآية : ٨٢

(٣) سوره الجمعة ، من الآية : ٤

﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾

المفردات :

(كَبُرتْ كَلِمَةً) : أى عظمت مقالةً فى الشناعة والقبح مقالتهم هذه : والكلمة واحدة الكلم ، وكثيرا ما يراد بها الجملة من الكلام أو الجمل منه ، كما فى قولهم : ألقى فلان كلمة وربما كانت خطابا طويلا .

(فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ) : أى فلعلك قاتلها أو مهلكها . وحرف الترجى (لعل) هنا ، يراد به النهى عن الحزن على عدم إيمان قومه رحمة به .

(أَسَفًا) : أى حزنا شديدًا وغمًّا .

التفسير

٤ ـ (وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا) :

أى : ويحذر الله سبحانه من بين الكافرين الذين استحقوا عذابه الشديد السابق ـ هؤلاء الفرق الثلاث ، الذين نسبوا لله ولدا ، وهم :

(١) كفار العرب المشركون الذين قالوا الملائكة بنات الله !

(٢) واليهود الذين زعموا أن عزيرا ابن الله !

(٣) والنصارى الذين قالوا المسيح ابن الله !

وإنما خص الله تبارك وتعالى هؤلاء الفرق بهذا الإنذار مع دخولهم فى عموم الإنذار السابق ؛ لشدة إمعانهم فى الكفر ، وقبح اجترائهم على الله عز وجل . والمنذر والمبشر

فى الآيات الثلاث هو الله تبارك وتعالى ؛ أو الكتاب الكريم ، أو الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد نزّه الله تبارك وتعالى ساحته ، وحمى حماه ، عن مفتريات هذه الفرق الضّالة المضلّة ، فقال عز من قائل ، مكذبا لهم تكذيبا قاطعاً :

٥ - (مَّالَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِأَبَآئِهِمْ . . .) الآية .

أى ليس لهؤلاءِ الكفرَة الفجرَة ، باتخاذه سبحانه وتعالى ولداً ، شىءٌ من علم ألبتّة ؛ وليس لأبائِهم وأسلافهم الذين قلدوهم أثارةٌ من علم كذلك ، بهذا الاتخاذ المزعوم !

أو ليس لهم علم بما قالوه : أصواب هو أم خطأٌ ، بل إنما قالوه رميا عن جهالة من غير فكر ولا روية ، كما فى قوله تعالى : « وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ »[1] .

أو ليس لهم علم ،بفظاعة ما قالوا وقبح موقعه من الشناعة ، كما فى قوله سبحانه : « وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا . تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا. وَمَا يَنبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا »[2] .
وهذا هو الأنسب بقوله جل من قائل :

(كَبُرَتْ كَلِمَةً) : أى عظمت مقالتهم هذه مقالة فى الكفر والافتراء ؛ لما فيها من نسبته تبارك وتعالى إلى مالا يليق بجلال كبريائه .

وقوله جل من قائل :

(تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ) : صفة لكلمة ، تفيد استعظام اجترائهم على التفوه بها ؛ فإن كثيراً مما يوسوس به الشيطان ، وتحدث به النفس ، لا يمكن أن يُتفوَّه به ، بل إنه يُطرح ويصرف عنه الفكر ، فكيف بهذا المنكر الذى لامستند له إلا مجرد افتراء الكذب ؟ !
ولهذا قال وقوله الحق :

(إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا) :

أى ما يقولون إلا قولا هو الكذب بعينه ، فلا يدخل تحت إمكان الصدق بتّة .

---

(١) سورة الأنعام ، من الآية : ١٠٠

(٢) سورة مريم ، الآيات : ٨٨ - ٩٢

٦ ـ (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا) :

سبب النزول :

قال الآلوسى : أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضى الله عنهما أن أبا جهل بْنَ هشام والنضربن الحارث وأُميةَ بن خلف . . . فى نفر من قريش ـ اجتمعوا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد كبُرَ عليه ما يرى من خلاف قومه إياه ، وإنكارهم ما جاء به من النصيحة ، فأحزنه ذلك حزنا شديداً ! فأنزل الله تبارك وتعالى : (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ) الآية .

وقال ابن جرير الطبرى رحمه الله فى تفسير هذه الآية :

وهذه معاتبة من الله عزَّ ذكره على وَجْـده صلى الله عليه وسلم بمباعدة قومه إياه فيما دعاهم إليه من الإيمان بالله والبراءة من الآلهة والأنداد ، وكان بهم رحيما . اهـ

شُبهت حاله صلى الله عليه وسلم ، فى شدة حزنه على إعراض قومه وتوَليهم عن الإيمان بالقرآن ـ شبهت حاله هذه ـ بحال من يُتوقع منه إهلاك نفسه على عدم تحقق أمر أهمه ، فقيل له رحمة به وإشفاقا عليه : لاتهلك نفسك حسرة عليهم ، بل هون عليك ، وبلّغ رسالة ربك ، فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها .

ومثل هذه الآية فى تسلية الله له رحمة به ، قولُه سبحانه : « لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَن لَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ »[1] .

وأمثال هذه التسلية مَبْثُوثَةٌ فى القرآن الكريم ، من رب به رحيم .

والمعنى الإجمالى للآية : فلعلك أيها الرسول مهلك نفسك أسفا ، عقب انصرافهم عنك ، إن لم يومنوا بهذا القرآن الذى هو حديث الله وكلماته ، ووحيه إلى عباده ـ ليهتدوا به .

---

(١) سورة الشعراء ، الآية : ٣

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨ ﴾

المفردات :

(زِينَةً لَّهَا) : أى بهجة لها وجمالًا .

(لِنَبْلُوَهُمْ) : أى لنعاملهم معاملة المختبر بتكليفهم بشرائعنا .

(لَجَاعِلُونَ) : لمُصَيِّرون .

(صَعِيدًا جُرُزًا) : ترابا ، لا نبات فيه ، يقال : جُرِزت الأرض : إذا ذهب نباتها بقحط أو جراد .

التفسـير

٧ـ (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا . . .) الآية .

لما تضمنت الآية السابقة نهى الله رسوله صلى الله عليه وسلم ، عن إجهاد نفسه فوق طاقتها ـ رحمة به ـ جاءت هذه الآية والتى تليها تسلية له صلوات الله وسلامه عليه وتسكينا لأسفه الشديد وحزنه ، لما جاء فيها من أنهم مجزيُّون على أعمالهم .

والمعنى : إنا أنشأْنا جميع ما على الأرض : حيوانا كان أو نباتا أو معدنا ـ أنشأْناه زينة لها ولأهلها ، ينتفعون به ويتمتعون إلى حين .

(لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) :

أى لنعاملهم معاملة المختبر ، ثم نجزىَ كلاًّ منهم على حسب عمله وإخلاصه لله فيه ، فكل العباد نبتليهم بالتكاليف ونحاسبهم عليها . فمن خالف ربه وعصاه عوقب على عصيانه ومخالفته ، ومن أحسن أثيب على إحسانه « فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ »[1] .

---

(١) سورة فاطر ، من الآية : ٨

وحسْنُ العمل فى هذه الدنيا صرفُها إلى ما ينبغى ، واتخاذُها وسيلة إلى معرفة خالقها ، والتمتعُ بالحلال الطيب منها ، وشكر الله - جلَّت آلاؤه - على نعمه فيها ، مع الحذر كلَّ الحذر من فتنتها والاغترار بها . واتخاذها وسيلة إلى الشهوات والمفاسد ، شأْن أَرباب الهوى ، ولا ريب أن مراتب الحسن والقبح متفاوتة .

ويجمع كل ما قدمناه - بل يزيد عليه - ما حكاه الله تعالى فى قصة قارون إذ قال له قومه وقد خرج عليهم فى زينته : « لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ . وَابْتَغِ فِيمَآ آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِى الْأَرْضِ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ »[1] .

٨ - (وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا) :

أَى وإننا لمصيرون - حتمًا - ما على الأَرض من المخلوقات قاطبة - عند تناهى عمر الدنيا - ترابًا لا نبات فيه ولا بهجة ، من بعد ما كان يتعجب من بهجته النُّظار ، وترنو إليه الأَبصار ؛ وفى هذهِ الآية الكريمة تكميل لسبب نهيه صلى الله عليه وسلم عن إجهاد نفسه الرحيمة فوق طاقتها ؛ كأَن الله تعالى يقول له : لا تحزن أَيها الرسول بما عانيت من تكذيب قومك لما أَنزلنا عليك ؛ فإناقد جعلنا ما على الأَرض من فنون الأَشياء زينة لها ، اختبارًا لأَهلها ؛ وسينتهى العُمران فيها إلى خراب ، والحياة فيها إلى موت ، ثم نجزى كل نفس بما أَسلفت ، وسننتقم لك منهم .

---

(١) سورة القصص ، الآيتان : ٧٦ ، ٧٧ .

(أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾)

المفردات :

(أَمْ) : معناها هنا : بل ، التى للانتقال من حديث إلى حديث ، مع همزة الاستفهام المتضمنة معنى النهى .

(حَسِبْتَ) : أى ظننت ؛ أو علمت ، من الحِسبان بمعنى الظن أو العلم ، وقد استعمل فى كلٍّ من المعنيين .

(الْكَهْفِ) : النقب المتسع فى الجبل ، فإن لم يكن متسعًا فهو الغار .

(وَالرَّقِيمِ) : هو اللوح الذى رقمت فيه أسماءُ أصحاب الكهف ، أو قصتهم ؛ قيل كان من حجارة ، وقيل كان من رصاص .

(الْفِتْيَةُ) : جمع فَتِىّ بوزن صَبِىّ ؛ وهو الشاب الحَدَث القوىّ . من الفَتَاء ، وهو الشباب وزنًا ومَعْنًى ، أو من الفُتوّة ، وفيها معنى الشهامة والنجدة .

(وَهَيِّئْ) : أى يسِّر وسهِّل .

(رَشَدًا) : أى إصابة لطريق السداد والرشاد واهتداءً إليه . وهو خلاف الغَىِّ .

(فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ آذَانِهِمْ) : المفعول ملاحظ ، تقديره حجابًا ، أى ألقيناه على آذانهم . والمراد أنمناهم إنامة ثقيلة لا تنبههم فيها الأصوات .

التفسير

٩ - (أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا) :

لما بين الله تعالى فى الآيات السابقة أنه جعل ما على الأرض زينة لها؛ ليختبر عباده فى هذه الدنيا الفانية ، التى ستنتهى إلى تراب لا نبات فيه ؛ ثم يجزىَ كُلاًّ منهم على حسب عمله وإخلاصه - قصّ عليهم قصة أهل الكهف والرقيم[1] برهانًا عمليًّا واضحًا ، ينطق بأن يوم البعث والجزاء آتٍ لا ريب فيه ؛ وقد أجمل الله قصتهم فى الآيات الثلاث التى حكيناها من قبل ، والخطاب لكل من يصلح للخطاب من البشر المكلفين .

والمعنى : لا تظن - أيها المكلف - أن قصة أصحاب الكهف والرقيم - وإن كانت من خوارق العادات - لا تظن أنها عجيبة دون غيرها من آياتنا ؛ أو لا تظن أنها أعجب آياتنا وأعظمها ! فإن من آياتنا ما هو أعجب منها وأعظم ؛ كخلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، وتسخير الشمس والقمر والكواكب ، وإخراج الحى من الميت ، وإخراج الميت من الحى ، وجعل ما على الأرض زينة لها ؛ لحكمة الابتلاء فى الدنيا والجزاء فى الآخرة ؛ كل هذه الآيات العظيمة وما إليها من آياتنا الدالة على قدرتنا - أعجب وأعظم من قصة أصحاب الكهف والرقيم .

١٠ - (إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً . . .) الآية .

أى اذكر حين التجأ هؤلاء الفتية المؤمنون بالله إلى الكهف ، فرارًا بإيمانهم من الشرك وأهله ، فقالوا ضارعين إلى ربهم مستغيثين به : يا ربنا هب لنا من عندك رحمة عظيمة ، من خزائن رحمتك الواسعة ، فيها الأمن والطمأنينة والمغفرة والسكينة .

---

(١) أصحاب الكهف هم أصحاب الرقيم عند الجمهور . وقيل إن أصحاب الرقيم غير أصحاب الكهف وهم ثلاثة ممن كانوا قبلنا أصابهم مطر : فأووا إلى غار ، فانطبقت عليهم صخرة منه وهم فيه ، فأنجاهم الله بعد أن توسلوا إليه بخلص أعمالهم . . انظر تفسير الآلوسى

(وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا) :

أى ويسِّر لنا من أمرنا هذا الذى نحن عليه من مهاجرة الكفار ، ـ يَسِّر لنا ـ هداية إليك وتثبيتًا على الإيمان بك والإخلاص لك ، حتى نكون من عبادك المهتدين الراشدين . وقال ابن كثير : أى وقدِّر لنا من أمرنا هذا رشدًا ، أى اجعل عاقبتنا رشدًا ، وما قضيت لنا من قضاء فاجعل عاقبته رشدًا ؛ وفى المسند من حديث بُسْر بن أرطاةَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يدعو : اللهم أحسنْ عاقبتنا فى الأُمور كلها وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة . أ

١١ ـ (فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا) :

أى فاستجبنا دعاءهم عقب ندائهم ، وأنمناهم فى الكهف آمنين مطمئنين ، نومةً ثقيلة طويلة تشبه الموت ، بلغت سنين كثيرة تُعَدُّ عَدًّا .

وسيأْتى التصريح بعدد هذه السنين فى قوله تعالى : « وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ . . . » الآية مع حكمة التأْخير ، والتفصيل بعد الإجمال .

وتخصيص الضرب على الآذان بالذكر ، مع مشاركة سائر الحواس والمشاعر لها فى الحجب عن الشعور والإدراك عند النوم ـ لأَن الآذان هى الوسيلة إلى التيقظ غالبا ، ولا سيما عند انفراد النائم واعتزاله عن الخلق .

ولما كانت نومة أهل الكهف فى عمقها وطولها كأَنها الموت ، عبر عن إيقاظهم منها بالبعث فقال سبحانه :

١٢ ـ (ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا) :

أى ثم أيقظناهم من تلك النومة الشبيهة بالموت ؛ لنظهر ما علمناه بشأْن لبثهم ، بإيضاح الأَحداث التى مرت بهم ، حتى يتبين للناس أَىُّ الفريقين أدق إحصاء لمدة لبثهم : أَلبثوا يومًا أو بعض يوم ، أم لبثوا أحقابًا ودهورًا ؟ !

واعلم أن الله تبارك وتعالى يعلم أزلًا علمًا تفصيليًا بكل ما يقع فى الكون ، طبقًا للأَجل المسمى عنده ، ووفقًا لما قدره سبحانه وعلمه ؛ فإذا حدَث ما قدَّره ، علِمَه واقعًا ، بعد علمه أزلًا بأَنه سيقع .

والمراد بالحزبين بعض الفتية : وهم المترددون القائلون : « لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ » — والحزب الآخر أهل المدينة الذين بعث الفتية على عهدهم ، وكان عندهم تاريخ غيبتهم ، قال ابن عطية : إن هذا قول جمهور المفسرين :اهوسيأتى الحديث مستفيضًا عما قيل فى بيان مكان الكهف ، وزمان رقودهم ، وزمان بعثهم .

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُۥٓا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾)

المفردات :

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ) : النبأ ؛ الخبر الخطير ذو الشأن .

(بِالْحَقِّ) : أى بالصدق الذى لا يحوم حوله شك .

(وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ) : المراد قَوَّيْنَا قلوبهم وثبتناها على الحق والصبر على الإيمان وآثاره .

(لَقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا) : أى لقد قلنا إذًا قولًا ذا شطط ، أى ذا بُعْدٍ عن الحق والصواب . والشطط : مجاوزة الحد فى كل شىء .

(لَوْلَا) : حرف تحضيض فيه معنى اللوم على عدم الفعل .

(بِسُلطَانٍ بَيِّنٍ) : أى ببرهان ظاهر قوى .

(فَمَنْ أَظْلَمُ) : استفهام إنكارى فيه معنى النفى .

(يَنشُرْ لَكُمْ) : يبسط لكم ويوسع عليكم .

(مِرْفَقًا) : المرفق – كمِنبَر ومَجلس – : ما يُرتَفَق وينتفع به .

التفسير

١٣– (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ . . .) الآية .

هذا شروع فى تفصيل ما أُجمل آنفا فى قوله تعالى : « إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ . . » .

أى نحن نخبرك الخبر اليقين الصادق عن هؤلاء الفتية وهو ما يلى :

(إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِم وَزِدْنَاهُمْ هُدًى) :

أى إنهم جماعة من الشباب النقى الفطرة الصادق العزيمة ، هُدوا بفطرتهم إلى ربهم فاطر السموات والأرض ، فأيقنوا أن الذى أبدعهما على غير مثال سبق ، هو الحقيق بأن يعبد بحق ، وأن يكون وحده ربًّا لهذا الكون وإلٰهًا ، هكذا اهتدوا إلى الله بآياته ، وهكذا آمنوا بربهم على هدى وبصيرة ، فزادهم ربهم بالعمل الصالح والعقل الرشيد يقينا إلى يقينهم ، وإيمانا مع إيمانهم ، ثم أعلن ثناءه عليهم ، فقال فى محكم كتابه :

(إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى) : ونحو هذه الآية قوله تعالى : « وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ » [1] . والشباب – كما قال الحافظ ابن كثير – : أقبل للحق ، وأهدى للسبيل من الشيوخ الذين قد عتوا وانغمسوا فى دين الباطل ؛ ولهذا كان أكثر المستجيبين لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم شبابا .

ولعل فى قول الحق تبارك وتعالى : « نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ » إشارة إلى أن فى عهده صلى الله عليه وسلم من كان يقص نبأهم لكن بغير الحق ، وفى هذا دليل على

(١) سورة محمد ، الآية : ١٧

أن قصة أهل الكهف كانت من علوم العرب وإن لم يكونوا عالميها على وجهها . وقد ذكر المفسرون والمؤرخون كثيرا من أخبارهم ، نقلا عن محمد بن إسحق وغيره من أصحاب السير [١] وحسبنا ما قص علينا العليم الحكيم من نبئهم « وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ »[٢].

ثم بين سبحانه لطفه بهم ، وجميل صنعه لهم ، حينما عزموا على التوجه إليه بعبادته وحده فقال :

١٤ - (وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا . . .) الآية .

أى قوّينا قلوبهم وثبتنـــاهم على الحق حين قاموا فى قومهم فقالوا كلمة الحق ، لا يخافون إلا الله ، ولا يرجون أحدا سواه : قالوا ربنا وخالقنا هو رب السموات والأرض وخالقها وحده ، فهو الحقيق بألا نعبد إلا إياه ، وألا نتخذ إلها ولا ربا سواه ، هذا اعتقادنا الذى نحيا ونموت عليه ، لن نتحول عنه أبدا ، وقولهم :

(لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا) : تأكيد لقولهم الحق الذى قالوه ؛ واعتقادهم الحق الذى اعتقدوه .

أى والله لو قلنا غير هذا القول ، وعبدنا مع ربنا الذى خلقنا إلها غيره – لكان قولنا هذا حينئذ بعيدا عن الحق والصواب غاية البعد ، وكنا بعبادة غير ربنا وخالقنا مُفرطين غاية الإفراط فى الضلال والظلم !

وفى هذا القول الذى قاله الفتية دلالة على أنهم دُعُوا إلى عبادة الأصنام وحُمِلوا عليها وأُنذروا على تركها ، وكان ذلك بين يدى الملك الجبار العابد للأوثان . وسيأتى بيان أمره معهم .

أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم أنهم خرجوا من المدينة فاجتمعوا وراءها على غير ميعاد فقال رجل منهم هو أشجعهم : إنى لأجد فى نفسى شيئًا ما أظن أحدًا يجده ، قالوا ماتجد ؟ قال أجد فى نفسى أن ربى رب السموات والأرض ، فقالوا جميعًا نحن كذلك ، فقاموا جميعًا فقالوا : « ربنا رب السموات والأرض » .

(١) انظر تفسير ابن جرير ، والآلوسى .

(٢) سورة فاطر ، من الآية : ١٤

وقال الحافظ ابن كثير فى تفسير قوله : (وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ . . .) الآية .

وصبّرناهم على مخالفة قومهم ومدينتهم لهم ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد والسعادة والنعمة ؛ فإنه قد ذكر غيرُ واحد من المفسرين من السلف والخلف : أنهم كانوا من أبناء سادة الروم ، وأنهم خرجوا يوما فى بعض أعياد قومهم ، وكان لهم مجتمع فى السنة يجتمعون فيه ، وكان لهم ملك جبار عنيد يأمر الناس بعبادة الأصنام والذبح لها ، فلما خرج الناس لمجتمعهم ذلك وخرج هؤلاء الفتية مع آبائهم وقومهم ، ونظروا إلى ما يصنع قومهم بعين بصيرتهم – عَرفوا أن هذا الذى يصنعه قومهم من السجود لأصنامهم والذبح لها ، لا ينبغى إلا لله الذى خلق السموات والأرض ، فجعل كل منهم يتخلص من قومه وينتحى ناحية ،حتى جمعهم الذى جمع قلوبهم على الإيمان به ، كما جاء فى الحديث الذى رواه البخارى عن عائشة رضى الله عنها قالت : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » .

ثم توافقوا كلهم على عبادة الله وحده . . فلما انتهى أمرهم إلى ملكهم استحضرهم بين يديه . فسألهم عن أمرهم وما هم عليه فأجابوا بالحق ودَعَوه إلى الله عز وجل ، وقد أجمل الله ذلك بقوله : (وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ . . .) الآية .

ويقال إنهم لما دَعوا الملك إلى الإيمان بالله أبى عليهم وتهددهم وتوعدهم، ثُمّ أَجَّلَ النظر فى أمرهم لعلهم يرجعون عن دينهم . قال الحافظ ابن كثير : وكان هذا من لطف الله بهم فإنهم فى تلك النَّظِرَة توَصلوا إلى الهرب منه والفرار بدينهم من الفتنة ! انتهى ما قاله ابن كثير ملخصاً .

ثم قال بعض الفتية لبعض ، إنكارا على أهل بلدهم ، وتمهيدا لاعتزالهم :

١٥– (هَٰؤُلَآءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ . .) الآية .

أى أشرك أهل بلدنا هؤلاء بعبادة غير الله ، من الأصنام التى اتخذوها آلهة فعبدوها معه هلاً يأتون على عبادتهم لهذه الأصنام ببرهان ظاهر وحجة واضحة ! !

وهذا تبكيت صارخ ؛ لأن الإتيان بالبرهان على عبادة الأصنام محال . وفى هذا دليل على أن مجرد التقليد فى العقائد مردود . ومما لا شك فيه أنك لو سألت أحدا من عوامّ المؤمنين عن دليل وجود الله الذى يعبده ؛ فإنه لا يتردد فى أن يشير إلى سمواته وأرضه ، ويشير إلى نفسه ، فهو يعلم أنها أمارات شاهدات على الحى القيوم .

ثم بينوا أن قومهم أظلم الظالمين فقالوا :

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا) :

أى لا أحد أشد ظلما ممن اختلق على ربه كذبا بنسبة الشريك إليه ؛ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا .

١٦ - (وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ فَأْوُوآ إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا) :

كان قوم الفتية يعبدون مع الله آلهة شتى ، فاعتزلت الفتية عبادة تلك الآلهة ولم تعتزل عبادة الله تعالى ؛ فقال بعضهم لبعض : وإذ فارقتم القوم بقلوبكم وبدينكم ، ففارقوهم أيضًا بأبدانكم ، فالجئوا إلى الكهف لعبادة ربكم مخلصين له الدين ، يبسط عليكم رحمة من عنده يستركم بها فى الدارين ، ويسهل لكم من أمركم ما تنتفعون به فى حياتكم ، قالوا ذلك ثقةً بفضل الله تعالى ، وقوةً فى رجائه ، لتوكلهم عليه سبحانه «وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ»[1] . ثم أتبعوا مقالتهم الحكيمة ، تنفيذ عزيمتهم الصادقة ، فأووا إلى كهفهم ، فى حراسة ربهم وكفالته ، لم يرهم أحد من قومهم ، وقد جدوا فى طلبهم!

قال الحافظ ابن كثير : وعمَّى الله خبرهم ، كما فعل بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وصاحبه الصديق رضى الله عنه ، حين لجآ إلى غار ثور ، وجاء المشركون من قريش فى الطلب فلم يهتدوا إليه ، مع أنهم يمرون عليه ! وعنـــدها قال النبى صلى الله عليه وسلم

(١) سورة الطلاق ، من الآية : ٣

لما رأى جَزع الصديق فى قوله يا رسول الله ، لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لأبصرنا ، فقال : يا أبا بكر ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما ؟ ! وقد قال تعالى : « إلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إذْ هُمَا فِي الغَارِ إذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا واللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ »[1]. قال ابن كثير : فقصة هذا الغار (أى غار ثور) أشرف وأجل ، وأعظم وأعجب ، من قصة أصحاب الكهف ! !

ذلك ، وقد دلت الآية الكريمة على مشروعية الهجرة . ولا شك أنه إذا اشتدت الفتن فى دار الكفرة ، ولم يستطع من بها من المسلمين أن يأمنوا على أنفسهم ودينهم — فعليهم أن يهاجروا حيث يأمنون على دينهم وأنفسهم . وقد هاجر أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، بأمره فرارا بدينهم من الفتن ! ثم هاجر صلى الله عليه وسلم هو وصاحبه ! واحتملوا فى هجرتهم أهوالاً ثقالاً ، كان عاقبتَها نصرُ الله والفتح .

﴿ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ ﴾

(١) سورة التوبة ، الآية : ٤٠

المفردات :

(تَزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ) :تتنحى وتميل عنه. (تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ) :تتركهم ناحيته ، من قرض بمعنى ترك. (فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ) : فى مُتَّسع من الكهف. (أَيْقَاظًا) :جمع يَقِظ بمعنى منتبه غير نائم . (وَهُمْ رُقُودٌ) : راقدون – أى نائمون. (بِالْوَصِيدِ) :بالفِناء أمام الكهف، ويطلق الوصيد أيضًا على العَتَبَة ، فلعله كان يجلس بباب الكهف ومدخله عند موضع العتبة لحراستهم. (لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ) : لو رأيتهم وشاهدتهم .

(لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ) :لأعرضت بوجهك عنهم .

التفسير

١٧ – (وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ) :

أفادت الآية التى قبلها أن بعضهم أشار عليهم بعد اعتزالهم قومهم المشركين ، أن يأووا إلى الكهف رجاء أن يبسط الله لهم من رحمته بعد فرارهم بدينهم ، وأن يسهل لهم من أمرهم ما يرتفقون به ، وقد جاءت هذه الآية لتُبيِّن حالهم بعد أن أَوَوْا إلى الكهف استجابة لمشورة أحدهم ، وقد حدث بعد لجوئهم إلى الكهف أنهم ناموا ، ولم يدر بخلدهم ماذا يكون من أمرهم بعد نومهم من عجائب الأُمور ، فضرب الله على آذانهم حجابًا كثيفًا يمنع سماعهم لما يجرى حولهم ، بأن جعل نومهم عميقًا يشبه رقود الموتى ولم يصرح بذلك هنا اكتفاء بإجمال حالهم من قبل فى قوله تعالى : « إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا . فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِى الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا »[1]. والخطاب فى قوله تعالى : « وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ » إمَّا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإما لكل أحد ، إيذانًا بغاية ظهوره والمعنى : .

وترى أيها الباحث عن حالهم فى كهفهم – ترى – الشمس إذا طلعت تتزاور[2] وتتنحى عن كهفهم جهة يمين الداخل إليه ، وتراها عند غروبها تعدل عنه ولا تدخله جهة الشمال ،

---

(١) الآيتان ١٠ ، ١١ من سورة الكهف .

(٢) من قولهم تزاور عنه . أى عدل وانحرف – انظر القاموس .

مع أنهم فى متسع من الكهف ، بحيث يمكن معه أن يصلهم شعاع الشمس ، ولكن الله تعالى حماهم من حرِّها فأبعد شعاعها عنهم حتى لا تؤذيهم بحرارتها طول النهار وكرامةً لهم ، فى حين أنه سبحانه جعل الهواء يدخل إليهم ، لتبقى حياتهم إلى حين بعثهم من رقادهم .

(ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ) : أى ذلك الذى حدث من تحول أشعة الشمس عنهم ، وعدم وصول ضوئها الحارِّ إليهم طَوَالَ النهار - كل يوم مدة رقودهم - مع اتساع مدخل الكهف وصلاحيته لتوصيل أشعة الشمس إليهم - ذلك كله - من آيات الله العظيمة الدالة على كمال قدرته وحكمته فى تدبيره ، حيث أبطل حكم العادة ، ليعلم الناس أن الحكم لله لا للأسباب العادية ، كما أنها من آيات الله على كرامة أهل الكهف ومنزلتهم لديه ، وأنه تعالى يحمى أولياءه ، ويكرم أصفياءه .

(مَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا) :

أى أن مَنْ يرشده الله سبحانه إرشادا يوصلُه إلى الحق ، فهو الواصل إليه لا محالة ، لأن نفسه مستسلمة إلى إرشاد الله ، ومستجيبة لآياته ودلائله ، ومن كان كذلك فله الجزاء الكريم فى الدنيا والآخرة ، أما من يصرفه الله ويبعده عن الهدى لأنه اتَّجه بسوء اختياره إلى الضلال وأوغل فيه ، فلن تجد له معينا يرشده ويهديه إلى الحق ، ويأخذ بيده إلى سواء السبيل .

وقد أفادت هذه الجملة من الآية الثناء على أهل الكهف والشهادة لهم بإصابة الهدى والرشاد ، وأن ذلك كان بتوفيق الله وهدايته لهم ، لسلامة فطرتهم ، وصفاء قلوبهم وعقولهم وانصرافهم عن تقليد آبائهم ، إلى اتباع آيات الهدى والرشاد ، وأما غيرهم من عبدة الأوثان ، فقد اتبعوا هَوَاهم ، وأعرضوا عن هُداهم ، فتخلى الله عنهم ، لأن سنة الله أن من يقبل على الله يهده الله ، ومن ينصرف عن هداه ، فهو متورط فى الضلال ، وليس له سبيل إلى الهدى ، ولا معين له على الوصول إليه ، بعد أن تخلى الله عن إنقاذه ، لإصراره على الضلالة .

١٨ - (وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ) : وتظنهم أيها الناظر إليهم أيقاظا وهم نيام - تظنهم كذلك - لانفتاح عيونهم ، وقال ابن عطية : تحسبهم أيقاظا لشدة الحفظ الذى كان من الله عليهم وقلة تغيرهم ، لأن الغالب على النيام استرخاءُ الأعضاء وَهَيْئَاتٌ معينة ، فإن لم توجد حَسِبَهُم الرائِى أيقاظًا وإن كانت عيونهم مقفلة ، والرأى الأول هو الظاهر .

(وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ) :ونقلبهم - وهم رُقُودٌ - جهة أيمانهم وجهة شمائلهم حِفْظًا لأجسادهم من البلى والضرر ، على نحو ما جرت به العادة فى النائمين ، أو لكى يدرك من يراهم وقد طال نومهم أنهم أحياءٌ ، فلا يسد الكهف عليهم ويدفنهم فيه ، أو لغير ذلك من حكم يعلمها خالقهم ،

(وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ) : أى أن كلب أصحاب الكهف مادٌّ ذراعيه وهو جالس على مُؤَخَّرته[1] بفِناءِ الكهف أو بمدخله كأنما هو يحرسهم وهم نيام .

واختلف العلماءُ فى أمره - هل نام كما ناموا ، أم أنه لم يستغرق فى نومه كما استغرقوا ، ومثل هذا الخلاف لا يمكن حسمه إلا بدليل ولا دليل ، وقد أُضيف الكلب إليهم فقيل كلبهم ، واختلف العلماءُ فى صاحبه ، فمنهم من قال إنه كلب مَرُّوا به فتبعهم ، وأصر على أن يكون معهم ، ومنهم من قال إنه كلب راع مرُّوا به فتبع دينهم وذهب معهم وبصحبته كلبه ، ومنهم من قال إنه كلب صيد لأحدهم وهذا الخلاف ليس له أساس ، فالكلب كلبهم كما جاءَ به النص الكريم ، والله أعلم كيف وصل إليهم .

(لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا) : أى لو عاينتهم وشاهدتهم لأعرضت بوجهك عنهم ، ولملئت منهم خوفًا بسبب ما ألقى الله عليهم من الهيبة والجلال وقيل : إن سبب الرعب فيمن يراهم ما كانوا عليه من طول الشعور والأظفار وصفرة الوجوه وتغير الثياب ، وهذا القول غير مقبول ، فإنهم لو كانوا كذلك لأنكروا أحوالهم بعد أن تيقظوا ، ولم يقولوا لبثنا يومًا أو بعض يوم ، وَلَمَّا بعثوا أحدهم إلى المدينة ليشترى لهم منها طعامًا ، وأوصوه بأن يتلطف ولا يشعر أحدًا بهم ، لأن منظرهم يوحى إليهم بأنهم من

---

(١) وتسمى هذه الجلسة الإقعاء .

أهل القرون الماضية ، فلا مجال لأن يقولوا لصاحبهم فى شأن الطعام ما قالوا ، ولأنه لما ذهب إلى المدينة لم ينكر حال نفسه وإنما أنكر معالم المدينة وأهلها ، فالحق أن الله تعالى لم يغير حالهم بعد مئات السنين ، ليكون ذلك آية بينة لمن يراهم بعد يقظتهم كما سنشرحه إن شاء الله تعالى .

أين الكهف ومن أىِّ البلاد أصحابُه

يقول بعض المفسرين إنه فى بلاد الروم ، وإن أصحابه منها ، ويضيفون إلى ذلك أنهم باقون على الحالة التى توجب فِرَارَ مَنْ يطَّلع عليهم ورُعْبَهُ منهم ، ويستدلون لذلك بما أخرجه ابن أبى شيبة وابن المنذر وغيرهما عن ابن عباس قال : « غزوْنَا مع معاوية غزوة المضيق نحو الروم ، فمررنا بالكهف الذى فيه أصحاب الكهف الذين ذكرَهم اللهُ تعالى فى القرآن ، فقال معاوية : لَوْ كُشِف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم ، فقال ابن عباس : ليس ذلك لك ، قد منع الله تعالى ذلك مَنْ هَوُ خيرٌ منك فقال : « لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا » فقال معاوية : لا أنتهى حتى أَعْلَمَ عِلْمَهُمْ ، فبعث رجالًا وقال اذهبوا فادخلوا الكهف وانظروا ، فذهبوا فلما دخلوه بعث الله تعالى عليهم ريحًا — فأخرجتهم » وأصحابُ هذا الرأى يقولون إن الخطاب فى قوله تعالى : « لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِم » للرسول خاصة .

وقد روى عن ابن عباس عكس ما تقدم ، فقد أخرج عبد الرازق وابن أبى حاتم عن عكرمة أن ابن عباس غزا مع حبيب بن مسلمة ، فمروا بالكهف فإذا فيه عظام ، فقال رجل : هذه عظام أهل الكهف ، فقال ابن عباس : لقد ذهبت عظامهم منذ أكثر من ثلاثمائة سنة ، فهذا الأثر ينفى ما دَلَّ عليه الخبر السابق ، من بقاءِ أجسادهم سليمة .

ونحن نرى أن الخطاب فى قوله تعالى : « لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ » لكل من يصلح أن يُخَاطَبَ ، وأن المراد من الآية الكريمة حكاية حالهم وقت رقودهم وقبل بعثهم ، وأما أمرهم بعد موتهم واتخاذ مسجد عليهم ، فهو من الغيبيات التى لم يكشف النقاب عنها على وجه تطمئن إليه القلوب .

ومن المفسرين من نقل أنهم بالشام ، قال أبو حيان : إن فى الشام كَهْفَ موتى ، ويزعم مُجَاوروه أنهم أصحاب الكهف ، وعليهم مسجد وبناء يسمى الرقيم ، ومعهم كلب رمة : ا هـ

ولعل أبا حيان يشير بكونهم فى الشام إلى أنهم فى الأُردن ، فإن الأُردن من الشام ، فقد كان إقليم الشام يعم سوريا والأُردن وفلسطين ولبنان ، وقد صرح بوجودهم فى الأُردن الهروى ، إذ قال : إن البلقاء بلد به الكهف والرقيم ، عند مدينة يقال لها عَمَّان ، بها آثار قديمة ، ووافقه ياقوت ، وقال القدسى : الرقيم قرية على فرسخ من عمان على تخوم البادية ، فيها مغارة لها بابان صغير وكبير وقد روى عن ابن عباس أن الرقيم واد بين غَضْبيان وأَيْلَة دون فلسطين ، وفيه أصحاب الكهف : ا هـ

وغَضْبَانُ بالضاد المعجمة واد بالشام ، وهذه الرواية تخالف ما روى عنه سابقًا من أنهم وكهفهم فى بلاد الروم ، ولعلها أقرب منها إلى الصواب . وقد دفَعتْ هذه الرواية وغيرها مصلحة الآثار بالمملكة الأُردنية إلى التنقيب فى هذه المنطقة حتى كشفوا كهفًا وآثارًا ، وظنوا أن هذا هو الكهف الذى جاء ذكره فى سورة الكهف ، بل لقد أكد الأُستاذ رفيق الدجانى المساعد الفنى لمدير الآثار العربية بالأُردن أنه هو بعينه، والله أعلم بصحة هذا أو مخالفته للحقيقة ، فقد علمت ما تقدم نقله من وجودهم ببلاد الروم ، ونقل الآلوسى أن بالأَندلس فى جهة غرناطة كهفَ موتى ومعهم كلب رمة ، وأكثرهم قد ذهب لحمه ، وبعضهم متماسك ، وهم بقرب قرية تسمى لوشة ، ويزعم ناس أنهم أصحاب الكهف . قال ابن عطية : دخلت عليهم فرأيتهم سنة أربع وخمسمائة وهم بهذه الحالة ، وعليهم مسجد ، وقريب منهم بناء رومى يسمى الرقيم ، كأنه قَصْر مخلق قد بقى بعض جدرانه ، وهم فى فلاة من الأرض خربة ، وبأعلى حصن غرناطة مما يلى القبلة آثار مدينة قديمة يقال لها مدينة دقيوس وجدنا فى آثارها غرائب : ا هـ .

فمن تضارب الروايات فى مكان كهفهم ، فإننا لا نستطيع الجزم به ، كما لا نستطيع الجزم بالأُمة التى نشأوا منها ، وكل ما نستطيع القطع به هو قصتهم وواقعيتها ، وأنهم من آيات الله تعالى ، فلندع العلم بما وراء ذلك إلى علام الغيوب .

(وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾)

المفردات :

(بَعَثْنَاهُمْ) : أيقظناهم . (لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ) : ليسأل بعضهم بعضًا .

(كَمْ لَبِثْتُمْ) : كم زمنا أقمتم نائمين . (بِوَرِقِكُمْ) : الورق بكسر الراء الفضة المضروبة كالدراهم ، وقيل يطلق على الفِضَّة وإن لم تكن مضروبة . (أَزْكَى طَعَامًا) : أطيب طعاما أو أطهره. (وَلْيَتَلَطَّفْ) : وليستعمل اللطف فى المعاملة حتى لا تقع خصومة تكشف أمرهم .

(إن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ) : إن يطلعوا عليكم ويعرفوكم .

(يَرْجُمُوكُمْ) : يقتلوكم رجما بالحجارة ، أو يقذفوكم بألفاظ السباب .

التفسير

١٩ - (وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُم لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ) :

بينت الآيتان السابقتان حالهم فى الكهف الذى أَوَوْا إليه ، بعد أن فارقوا أهلهم المشركين ، وأن الله تولى حفظ أجسادهم فيه حتى لا يفنيهم تعاقب السنين عليهم ، فجعل الشمس لا تصيبهم طوال نهارهم مع أنهم فى فجوة من الكهف بحيث تتمكن الشمس من إصابتهم ، وجعل يقلب أجسادهم ذات اليمين وذات الشمال ، وجعل أجسادهم تعيش

مئات السنين بلا طعام ولا شراب ، وجعل منظرهم يبعث الرعب والفرار منهم ، ليكون ذلك أدعى إلى سلامتهم ، وأدفع للشر عنهم ، وأبعد للوحوش المفترسة عن إيذائهم ، وكل ذلك من آيات الله . وجاءت هذه الآية الكريمة لشرح حالهم بعد يقظتهم من هذا الرقاد الطويل الذى لم يغير شيئًا من ثيابهم ولا من شعورهم وأجسادهم ، فقد بينت أنهم استيقظوا فتساءلوا كم من الزمن لبثتم ؟ ، فأجاب المسئول منهم سائِلَهُ بأنهم لبثوا نائمين يوما أو بعض يوم ، ولو طالت لحاهم أو أظافرهم أو بليت ثيابهم أو ضرب بياض الشيب شعرهم لما كان جواب المسئول لبثنا يوما أو بعض يوم ، ولما بعثوا بعضهم ليشترى لهم طعامًا بدراهمهم التى مضى على ضَرْبها مئات السنين ، وقد حدثت هذه الآية على هذا النحو العجيب ، لِيُعْرفَ أمرهم ، ويتبين للناس من حالهم أن الله يبعث من فى القبور ، كما سنعرض له فى موضعه إن شاء الله تعالى .

والمعنى : أنمناهم على هذا النحو العجيب الدال على قدرتنا ، ثم أيقظناهم من نومهم على هيئة لا تغير فيها لشىء من أحوالهم ، لكى يسأل بعضهم بعضًا : كم من الوقت لبثنا نائمين بعد أن أوينا إلى هذا الكهف مرهقين من رحلة الهرب من أهلينا المشركين ، قال بعضهم جوابا للسائل : لبثنا يوم أو بعض يوم ، فاستراحت بذلك أجسادنا المكدودة .

والمشهور أن نومهم كان غدوة وانتباههم كان آخر النهار ، وحرف (أو) فى قول المجيب على السائل (أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ) يحتمل أن يكون للشك فى مدة لبثهم أهى يوم أو بعض يوم ، لأنهم فى جوف الغار ولوثةُ النوم لم تفارقهم بعد ، وقال أبو حيان إنها للتفصيل على معنى : قال بعضهم : لبثنا يوما ، وقال آخرون : لبثنا بعض يوم ، وقول كليْهما مبنى على غلبة الظن .

(قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوٓا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُم هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا) : قال بعض آخر التبس عليه الأمر : ربكم أعلم بالوقت الذى مكثتم فيه نائمين ، فلا سبيل إلى التحقق من أنه

يوم أو بعض يوم ، فدعوا الحديث عنه ، فابعثوا أحدكم بدراهمكم هذه التى أحملها ، ليذهب بها إلى المدينة التى خرجنا منها مهاجرين إلى الله ، فلينظر أى البائعين بالمدينة أطيب طعاما ، وأبعده عن الإثم ، فقد كان أهلها يذبحون للطواغيت ، فليأتكم برزق من أطيب الطعام ، وليتلطف فى معاملته مع بائع الطعام حتى لا تقع خصومة بينه وبينه وينكشف بها أمركم ، ولا يفعلن ما يؤدى إلى شعور أحد من أهل المدينة بكم ، لننجو من العواقب الوخيمة التى تترتب على معرفتهم بمخبئكم عن طريقه . وفى إقرارهم فى النص الشريف على حملهم للدراهم معهم دليل أن التأهب لأسباب المعاش لمن خرج من منزله ، بحمل النفقة ونحوها لا ينافى التوكل على الله ، فإن الحياة بنيت على اتخاذ الأسباب ثم يأتى التوكل على الله بعد ذلك ليساعد من استعان به على نجاح أسبابه ، قال تعالى فى سورة الملك : « فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ». وقال صلى الله عليه وسلم لمن أناخ ناقته ولم يعقلها ، قائلا إنى متوكل على الله — قال له الرسول — « اعْقِلْهَا وَتَوَكَّل » .

٢٠ — ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا إِذًا أَبَدًا﴾ :

إن قومكم الذين هجرتموهم وتركتم دينهم إن يطلعوا عليكم ويظفروا بكم يرجموكم بالحجارة فيقتلوكم لمخالفتكم إياهم فيما هم عليه من الدين ، واعتزالكم إياهم وما يعبدون ، وشق عصا الطاعة ومخالفة الجماعة فى أقدس أمورها يوجب القتل عندها إلا أن تعودوا إلى ملتهم وتستجيبوا إلى فتنتهم مكرهين ، ولن تفلحوا أبدا إن دخلتموها ولو مكرهين ، فإنهم سيستدرجونكم مع الشيطان إلى استحسانها والاستمرار عليها ، وسيحيطونكم بمختلف الفتن والمغريات حتى يطفئوا نور الإيمان فى قلوبكم .

ثم إن هؤلاء الفتية بعثوا أحدهم بدراهمهم ليأتيهم برزق طيب من المدينة بعد أن سمع من إخوانه نصيحتهم ، واشتهر أن اسمه يمليخا ، ولما ذهب إلى المدينة حدث ما أشار إليه بقوله :

(وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾)

المفردات :

(أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ) :أصل العثور السقوط لجهة الوجه ، كما قال الراغب ، ثم تجوز به عن الحصول أو الاطلاع على أمر مصادفةً ، وأعثرنا عليهم معناها فى الآية أطلعنا عليهم أهل مدينتهم . (لَارَيْبَ فِيهَا) : لايصح أن يرتاب فيها أحد . (السَّاعَةَ) : القيامة ، وسميت بذلك لأنها تفجأُ الناس فى ساعة يجهلونها ، ويختص الله بعلمها .

(يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ) : يتخاصمون فى شأن بعثهم ، فمِنْهم مُقِر بدلالته على البعث الأُخروى ، ومنهم نافٍ له ، أو يتخاصمون فى نومهم ثانيا بعد يقظتهم أهو موت أم هورقود كما كانوا .

التفسير

٢١ - (وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَارَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ) :

تحكى هذه الآية ما آل إليه أمرهم بعد يقظتهم من رقدة لم يعرف لها التاريخ مثيلا ، حيث مكثوا نياما « ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا » ثم كان من قصتهم ماسنذكره إجمالا ثم نفصله ، والمعنى :

وكما أَنَمْنَاهُمْ هذه النومة الطويلة العجيبة ، وأيقظناهم بعدها بحالة عادية ظنوا معها أنهم لبثوا نائمين يومًا أو بعض يوم ـ كما فعلنا ذلك ـ أطلعنا الناس عليهم بعد تلك الأَجيال العديدة التى ظلوا فيها نائمين ، ليعلموا بما عرفوه من أحوالهم العجيبة ، أن وعد الله تعالى

بأن يبعث الناس بعد الموت للحساب والجزاء حقٌّ ، وأن الساعة التي يقوم فيها الناس لرب العالمين لاينبغي أن يرتابوا فيها .

(إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِداً) :

فى هذا الكلام تتمة الحديث عن قصتهم بعد الإعثار عليهم ، والمعنى الإجمالى للآية ما يلى :

وكذلك أعثرنا الناس على أصحاب الكهف بعد بعثهم وقيامهم من رقودهم ، حيث كشفت الدراهم التى كانت مع مبعوثهم أنها ضُربت منذ مئات السنين فى عهد ملك وثنى جبار كان أصحاب الكهف قد هربوا منه ومن قومهم الوثنيين فى عهده ، وظهر للفتى المبعوث أنهم فى عهد ملك آخر ،وجيل يختلف كل الاختلاف عن الجيل الذى عاشوا فيه ، وكان ذلك كله ليعلم الناس أن وعد الله بالحياة الآخرة حق ، وأن الساعة التى يقوم الناس فيها لرب العالمين آتية لاريب فيها ، فلما عاد الفتى إلى أصحابه فى الكهف ، وفى صحبته بعض من وقفوا على أمره من زعماء هذا العصر وأهله ــ لما عاد الفتى إلى أصحابه ــ توفاهم الله تعالى ، اذْكُر لأُمتك أيها الرسول ، حين يتنازع قومهم فى بعثهم ، أيشبه بعث الآخرة أو يخالفه ، أو يتنازعون فى أنهم ماتوا أو ناموا كما حدث أول مرة ، ثم فرغوا من التنازع فى ذلك ، واهتموا بإجلال قدرهم وتعظيم أمرهم ، بعد أن تبين لهم موتهم ، فقال بعضهم لبعض : ابنوا على باب كهفهم بنيانا ، لئلا يتطرق الناس إليهم ، قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن على بابهم مسجدا تكريما لهم ، وَحَثًّا للناس على عبادة ربهم ، وبهذا البيان أجملنا تفسير هذه الآية التى طَوَتْ تحت عباراتها القصيرة أحداثا عظيمة نفصل بعضها فيما يلى :

تفصيل بعض احداث القصة

بعد أن ضَرب الله على آذان الفتية فى الكهف فلم يسمعوا ولم يدروا بما حولهم أكثر من ثلاثة قرون ، ــ بعد ذلك ــ لم يبق أحد من أُمتهم التى اعتزلوها ، فحينما بعثوا من رقودهم الطويل ، كان يوجد غيرهم يحكمهم ملك مؤمن ، فاختلف أهل مملكته فى أمر البعث ، أيكون أو لايكون؟ ، وإذا حدث البعث أيكون للأرواح وحدها أم يكون لها وللأجساد ،؟ فشق ذلك على الملك ، فلبس المُسُوح وجلس على الرماد ، ودعا الله أن يبعث لأُمته آية

تبين لهم الحق فيما هم فيه مختلفون ، فبعث أصحاب الكهف من رقودهم الطويل ، فبعثوا أحدهم ليشترى لهم طعامًا ، فدخل السوق فجعل ينكر الوجوه التى يراها ، وقد اختلفت عليه معالم المدينة كثيرًا ، ورأى مظاهر الإيمان بادية على أهل المدينة ، ثم أقبل متلطفا على رجل ليشترى منه طعامًا ، فلما نظر الدراهم أنكرها ، لأنها مضروبة من عهد بعيد ، حيث كان يوجدملك وثنىٌّ – قيل إنه يدعى دقيانوس– فاتهمه بكنز عثر عليه ، وطلب منه أن يدله عليه حتى لايرفع أمره إلى الملك ، فقال الفتى هى من ضربه ، أليس ملككم فلانا ؟ فقال الرجل : لا . بل هو فلان – وكان اسمه كما قيل (بندوسيس) فاجتمع الناس وذهبوا به إلى الملك – وهو خائف– فسأله عن شأنه ، فقص عليه القصة ، وكان الملك قد سمع أن فِتْيَةً خرجوا ولم يعودوا على عهد دقيانوس ، فدعا مشيخة أهل بلده ، وكان عند رجل منهم أسماؤهم وأنسابهم ، فلما سألهم الملك عن هؤلاء الفتية ، تقدم هذا الرجل ، وذكر له ما عنده من أمرهم ، فقال الفتى صدق ، ثم قال الملك : أيها الناس . هذه آية بعثها الله لكم ، لتؤمنوا بالبعث وأنه على نحو ما رأيتم ، ثم خرج هو وطائفة من أهل المدينة ومعهم الفتى ، فلما رأى الملك الفتية اعتنقهم وفرح بهم ، ورآهم جلوسا مشرقة وجوههم ، لم تَبْلَ ثِيابُهم ، فأخبروه عما لقوا من دقيانوس ، فبينما هم بين يديه إذ قالوا له : نستودعك الله تعالى ، والسلام عليك ورحمة الله ، ودعوا له بخير ، ثم رجعوا إلى مضاجعهم فتوفاهم الله تعالى ثم كان من أمرهم ما قص الله تعالى .

تلك إحدى الروايات التى تحدثت عن قصتهم ، اكتفينا بها فى فهم ما أجمله القرآن من أمرهم ، انظر الآلوسى فى بيان هذه القصة .

حكم اتخاذ المساجد فوق القبور

استدل بعض الفقهاء بالآية على جواز اتخاذ المساجد فوق قبور الصلحاء والصلاة فيها ، وهو استدلال باطل ، فإننا لو سلمنا أن هؤلاء بنوا عليهم مسجدًا للصلاة وفق شرعهم ، فإن شرع من قبلنا إنما يكون شرعا لنا إذا لم يرد فى شرعنا ما يَرُدُّه ، وقد جاء فى شرعنا ما يحرمه ويرده ، فقد قال صلى الله عليه وسلم :

« لَعَنَ اللهُ زَائِرَاتِ الْقُبُورِ وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ » أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى وغيرهم عن ابن عباس ، وقال صلى الله عليه وسلم :

« لَعَنَ اللهُ تَعَالَى الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى . اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِد » أخرجه الشيخان والنسائى عن عائشة ، ومُسْلِمٌ عن أبى هريرة ، إلى غير ذلك من الأحاديث الصحيحة الناهية عن اتخاذ المساجد فوق القبور .

ويرى بعض علماء الحنابلة هدم المساجد التى تبنى على القبور ، والقباب التى تبنى عليها ، على أن الآية ليست نصا فى أنهم بنوها وفق شرعهم ، فليس فيها سوى حكاية قول طائفة من الناس وعزمهم على فعل ذلك ، وليست خارجة مخرج المدح والحض على التأسى بهم ، فحيث لم يثبت أن فيهم معصوما لا يدل فعلهم فضلا عن عزمهم على مشروعية ما كانوا بصدده ، ولك أن تقول أيضًا : إن اتخاذهم المسجد عليهم ، يراد منه اتخاذهم إياه عند قبرهم فى كهفهم ، وقريبًا منه ، وقد جاء التصريح بالعندية فى رواية السدى للقصة ، ومثل هذا الاتخاذ ليس محظورًا ، ويمكن أن يقال إن (على) فى قولهم « لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَّسْجِدًا » يمكن أن تكون بمعنى لام التعليل ، أى لنتخذن لأجلهم مسجداً ، كما تقول لشخص أحسن فى صُنْعِه : لأعطينك عليه جائزة ، أى لأعطينك لأجله هذه الجائزة ، ومن كل ذلك نفهم أنه لايوجد فى الآية ما يستدل به على جواز بناء المساجد فوق الأضرحة .

(سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ۚ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾)

المفردات :

(رَجْمًا بِالْغَيْبِ) : رميا بالخبر الغائب الخفى عنهم . (فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ) : فلا تجادل فيهم ، والمماراة المحاجة والجدال ، قال الراغب : هى المحاجة فيما فيه مرية - أى تَرَدُّد - مأخوذ من مَرَيْتُ الناقة إذا مسحت ضرعها للحَلْب . (إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا) : إلّا محاجة وجدَالًا بمـا هو ظاهر ، وذلك بالاقتصار على ما نزل به الوحى من غير تجهيل لمن يحاورك فيهم ، فقد يكون مصيبا والقرآن لم يستوعب قصتهم ، بل جاء ببعضها .

(وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا) : ولا تستفت فى شأن أهل الكهف أحدًا من الخائضين ولا ترجع إليهم فى قصتهم ، ففيما أخبرناك به كفاية وغُنْيَةٌ عن سؤالهم ، فضلا عن أن ما يعرفون عنهم مشوبٌ بالخطأ .

(لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا) : أى لأقرب وأظهر من نبأ أصحاب الكهف من براهين نبوتك.

التفسير

٢٢ - (سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ) :

أجمل الله فيما تقدم قصة أهل الكهف ، وآخرها العثور عليهم وموتهم عقب التعرف عليهم ، واعتزام من غلب على الأمر فى أُمَّتِهِمْ فى ذلك الوقت أن يبنى عليهم مسجدًا ، وجاءت هذه الآية ، لتبين أن بعض معاصرى النبى صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب سيخوضون فى قصتهم ، وأنه تعالى نهاه عن أن يخوض معهم فى أمرهم ، وأن لايزيد على ما أنزله الله إليه فى شأنهم ، وأن لايستفتيهم فى بيان أمرهم أكثر مما نزل به الوحى ، فليس بحاجة إلى ذلك ، وليسوا هم على مستوى الفتوى فى أمر لا يعلمه إلا الله وقليل من عباده .

والمعنى : سيقول الخائضون فى شأنهم من أهل الكتاب : أهْلُ الكهف ثلاثةُ أشخاص من الرجال رابعهم كلبهم ، ويقول آخرون منهم : هم خمسة سادسهم كلبهم ، سيقول هؤلاء وأولئك ما قالوه فى عددهم ، رميًا بالخبر الغائب من غير سند لما قالوه ، ويقول جماعة

ثالثة منهم : أَهْلُ الكهف سبعة وثامنهم كلبهم ، يقولون ذلك عن ثقة وطمأنينة نفس[1] ، ولذلك لم يتبع الله عبارتهم بما أتبع به عبارة من سبقهم ، من أنهم يرجمون بالغيب ، بل أشار إلى علمهم بقوله تعالى :

(قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ) : فهم من القليل الذين يعلمون عدتهم . قال ابن عباس : « حين وقعت الواو انقطعت العدة » أى لم يبق بعدها عدة لأحد يلتفت إليها ، وثبت أنهم سبعة وثامنهم كلبهم على القطع والبت . وقد نص عطاءٌ على أن هذا القليل من أهل الكتاب ، وقيل من البشر ، فقد صح عن ابن عباس أنه قال : « أنا من أولئك القليل » .

وقيل إن المختلفين فى عددهم هم نصارى نجران ، تناظروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال الملكانية : هم ثلاثة رابعهم كلبهم ، وقال اليعقوبية : هم خمسة سادسهم كلبهم ، وقال النسطورية : هم سبعة وثامنهم كلبهم ، وهذا القول فى حكاية المختلفين مَرْوِىٌّ عن ابن عباس رضى الله عنهما أما أسماؤهم ، فقد خاض بعضهم فى ذكرها ، وعزوها إلى ابن عباس تارة ، وإلى الإمام عَلِىٍّ تارة أخرى وكل منهما يخالف الآخر .

ونحن نرى أن لا دليل على ما ذكر فى الروايتين من أسمائهم ، فإنها لم تصل إلى ابن عباس أو علىٍّ أو غيرهما عن طريق معصوم ، ولعل هذه الأسماء كانت تذكر على ألسنة أهل الكتاب ، فتسربت إلى المجتمع الإسلامى عنهم ، فالكف عن التقيد بها أولى .

(فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا) :

الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ولكل من يريد أن يتحدث فى أمرهم من أهل العلم مع سواه ممن يخوض فى شأنهم .

والمعنى : إذا كنت قد عرفت أن من يخوض فى عددهم ، منهم المخطئ ومنهم المصيب ، فلا تجادلهم فى شأن هؤلاء الفِتْية إلا جدالًا ظاهرًا لا عمق فيه ، بأن تقتصر فى أمرهم على ما نزل به الروح الأمين ، من غير تجهيل للجاهل منهم ولا تفضيح لحاله ، فإن ذلك يخل بمكارم

(١) ولهذا أكدوا عبارتهم بالواو فى قولهم كما حكى الله عنهم « ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم» قال العلماء : هذه الواو تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة ، كما تدخل على الجملة الواقعة حالا عن المعرفة فى نحو قولك : جاءنى رجل ومعه آخر ، و مررت بزيد وفى يده سيف ، ومن الأول قوله تعالى : « وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم» وفائدتها توكيد لصوق الصفة بالموصوف – انظر الآلوسى فى هذه الجملة .

الأخلاق التى جاء الإسلام ليتمها ، ولا تستفت فيما لم يتعرض الوحى لبيانه من أحوال أهل الكهف – لاتستفت – أحدا من الخائضين فى شأنهم من أهل الكتاب ، فلست بحاجة بعد ما أوحى إليك إلى المزيد من التعريف بأحوالهم ، فإن فيه العبرة للمعتبر ، وليس مَنْ يُسْتَفْتَى فى شأنهم من أهل الكتاب أهلا للفتوى لجهالتهم أو ضحالة ما عندهم من أمرهم .

٢٣ ، ٢٤ – (وَلَا تَقُولَنَّ لِشَىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّآ أَنْ يَشَآءَ اللَّهُ ... الخ) :

لا يزال الكلام متصلًا بشأن أهل الكهف ، فإن هذه الآية نزلت حين سألت قريش النبي صلى الله عليه وسلم عن الروح وأصحاب الكهف وذى القرنين ، فقال صلى الله عليه وسلم غدًا أُخبركم ، فأبطأ عليه الوحى ثم نزل الوحى بعد الموعد ، وقد نبَّه الله فيه نبيه صلى الله عليه وسلم بهذه الآية أن لايقول فى أى شأن من الشئون سواء كان فى أمر الشريعة أوسواها – أن لا يقول – إنى فاعل ذلك غدًا إلا مرتبطًا بقوله إن شاء الله فإن أمكنه أن يفعله غدًا فعله ، وإلا فقد وقع التخلف وفقًا لمشيئة الله الذى لا يقع فى ملكه إلا ما شاءه سبحانه ، ونحن مكلفون بهذا التوجيه الإلٰهى لرسوله صلى الله عليه وسلم ، فإنه أسوتنا وإمامنا .

والمعنى : ولا تقولن لأجل شىء تعزم على فعله : إنى فاعل ذلك غدًا أو فيما يستقبل من الزمان إلا مُقْتَرِنًا بمشيئة الله ، وذلك بقولك إن شاء الله ، لتخرج من العهدة بالتخلف عن الفعل فى الموعد المضروب ، لعدم تحقق مشيئة الله به فيه ، فإن حصل نسيان للمشيئة وقت الوعد بالفعل فليذكرها الإنسان عندما يتذكر ، وفى ذلك يقول الله تعالى :

(وَاذْكُرْ رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا) :

أى واذكر مشيئة ربك إذا تذكرت أنك نسيتها ، تداركًا لما فاتك من ذكرها ، سواء قصر الفصل أم طال ، وهذا ما جنح إليه ابن عباس ، فقد أخرج ابن جرير وغيره عن ابن عباس رضى الله عنهما ؛ أنه كان يرى الاستثناء ولو بعد سنة ويقرأ الآية ، والمراد من الاستثناء التعليق بالمشيئة ، وهذا هو مذهب أهل البيت ونقل فى رواية أنه رأى للإمام أحمد .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جبير فى رجل حلف ونسى الاستثناء – أى التعليق على المشيئة – فأفتى بأن له الاستثناء إلى شهر ، ومذهب عطاء أن له الاستثناء بعد اليمين إلى مقدار حلب ناقة ، أما طاووس فإنه يرى ذلك ما دام فى المجلس وجمهور الفقهاء يشترطون

لصحة الاستثناء فى اليمين بالتعليق على مشيئة الله أن يكون متصلا بالمحلوف عليه ، قالوا : ولو صح جواز الفصل وعدم تأثيره فى الأحكام ، لما تقرر طلاق ولا عِتاقٌ ولا صح إقرار ، ولم يعلم صدق ولا كذب . وكان أبو حنيفة لا يوافق على رأى ابن عباس ، ويرى أن التعليق بالمشيئة يجب اتصاله بما ارتبط به ، فعلم بذلك أبو جعفر المنصور ، فبعث إلى أبى حنيفة ليلومه على مخالفته لرأى ابن عباس ، فقال أبو حنيفة : هذا يرجع إليك أنت ، إنك تأخذ البيعة على الناس بالأيمان ، أفترْضَى أن يخرجوا من عندك فيستثنوا قائلين : إن شاء الله ، فيخرجوا عليك ؟ فاستحسن كلامه .

والحق فى هذه المسألة أن الآية ظاهرة فى أمر تفويض العبد فى أموره التى عزم عليها إلى مشيئة الله ، فإن نسيها ثم ذكرها فليقلها مهما كان الفاصل من الزمان ، أما الأحكام فى نحو الطلاق والعتاق والبيع والشراء ونحوها ، فالآية لا صلة لها بها ، ومن ثمَّ فما قاله ابن عباس راجع إلى التفويض لا إلى الأحكام ، وعلى هذا فإن التعليق بالمشيئة فى الأحكام إنما يَرْفَعُها إذا اتصل بها ، فإن انفصل عنها فلا يرفعها ، فمثلا ، لو قال لزوجته : أنت طالق ، وعقبه بقوله : إن شاء الله لم تطلق ، فإن تأخر التعليق بالمشيئة على الطلاق وانفصل عنه ، وقع الطلاق — ولا نظن ابن عباس يخفى عليه شىء من ذلك — والله أعلم .

ومعنى هذه الجملة بعد أن اتضح المقام ، واذكر ربك بالتعليق على مشيئته إنْ تَذكَّرتَها بعد أن نسيتها فيما عَزَمْتَ عليه من المقاصد ، وقل أرجو أن يوفقنى الله لشىء أقرب رشدًا وَخَيْرًا من هذا الذى نسيت التعليق على مشيئة الله تعالى بشأنه .

وعلى ارتباط هذا الجزء من الآية بسبب النزول يكون المعنى : وقل أيها الرسول عسى أن يوفقنى ربى لشىء أقرب من نبإ أصحاب الكهف إرشادًا للناس ودلالة على نبوتى .

وإلى هذا المعنى ذهب الزجاج ، وقد حقق الله لرسوله هذا فقد آتاه الله من الآيات ما هو أعظم من ذلك وأبين ، كقصص الأنبياء فى الأعصار والدهور البعيدة ، والحوادث التى سوف تنزل فى المستقبل إلى يوم الساعة ، إلى غير ذلك مما يبدو نبأُ أهل الكهف بالنسبة إليه أمْرًا هينًا ضئيلًا — مع عظمة وَرِفْعَةِ شأْنه .

(وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ۖ لَهُ غَيْبُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾)

المفردات :

(لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) : له سبحانه ما غاب فيهما خلقا وملكاوتصرفا وعلما .

(أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ) : ما أعظم سمعه وبصره. (مَالَهُمْ مِنْ دُونِه مِن وَّلِيّ) :ليس لهم من غيره تعالى من يتولى أمورهم .(لَا مُبدِّل لكَلِمَاتِهِ) : لاقدرة لأحد على تبديل كلماته سبحانه.

(مُلْتَحَدًا) : ملجأ تَلْجأ إليه عند الملمات .

التفسير

٢٥ــ (وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاَثمِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا) :

هذه الآية مبينة لما أجمل من مدة لبثهم فى قوله تعالى: « فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا » وأخر هذا البيان عنها ليتخلل بينهما إجمال قصتهم ، حتى تنتهى إلى أنهم تنازعوا واختلفوا فى مدة لبثهم ، واختلفوا فى عددهم ، فيأتى هذا البيان بعد الشوق إليه ، ليعظم عجب الناس من قدرة الله ، ويشتد إيمانهم بقدرته على البعث ، والمعنى :

ولبث أصحاب الكهف مَضْرُوباً على آذانهم فيه ثلاثمائة سنة وتسع سنين ازدادوا بها فوقها ، ولم يقل ثلاثمائة وتسع سنين مع أنه أخصر (من ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً) لكى يشير بالثلاثمائة إلى مدة لبثهم بالسنين الشمسية التى عليها أهل الكتاب ، وبزيادة

يسع عليها إلى ما عليه العرب من الحساب القمرى الذى يفرق تسع سنين زائدة عليها قريبا ، لأن السنة الشمسية ثلاثمائة وخمسة وستون يوما تقريبا ، والقمرية ثلاثمائة أربعة وخمسون يوما تقريبا ، وهذا الرأى منسوب إلى الإمام على .

وقيل : يجوز أن أهل الكتاب اختلفوا فى مدة لبثهم كما اختلفوا فى عدتهم ، فجاء له « ولبثوا فى كهفهم » الخ رافعا للخلاف مبيناً للحق ، ويكون « وازدادوا تِسعاً » بريرا للعدد ، ودفعا للاحتمال ، فكأنه قيل : وازدادوا تسعا فوق الثلثمائة ، نظير الاستثناء قوله تعالى : « فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عاماً » وقيل إنهم انتبهوا قليلا بعد ثلاثمائة ، ثم رُدُّوا إلى النوم فبقوا نائمين تسع سنين زائدة على الثلاثمائة والرأى الأول تفسير الآية أحرى بالقبول .

٢٦ - (قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ...) الآية. أى قل يا محمد للناس : الله أعلم بما لبثوا ، ذا حكى لكم أنهم لبثوا ثلاثمائة وازدادوا عليها تسع سنين ، وفقاً لما علمه الله من أمرهم .

(لَهُ غَيْبُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وأَسْمِعْ[1]) : أى للهِ تعالى علم جميع ما غاب فى سموات والأرض وخفى من أحوالها وأحوال من فيهما ، فضلا عن علمه بما ظهر فيهما ، أعظم بصره بالأشياء وسمعه لها وعلمه بها ، فهو إذ ينبئك بمدة لبثهم ، فما ينبئك بالحق « وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ » .

(مَا لَهُم مِّنْ دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِ أَحدًا) : الضمير فى « لهم » يرجع أهل الكهف .

والمعنى : قل للناس أيضاً ليس لأهل الكهف من غيره من ولى تولى أمر إنامتهم تلك المدة ، حفظهم فيها حتى يجعلهم أمارة على البعث ، ولا يشرك فى قضائه بشأنهم أحدا .

ويصح أن يرجع الضمير لأهل السموات والأرض المدلول عليهم بذكرهما أى ما لأهل سموات والأرض من غير الله ولى يتولى أمورهم ، وفى جملتهم أهل الكهف .

٢٧ - (وَاتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا) :

---

(١) هذه الجملة من ضمن ما أمر الرسول أن يقوله للناس بشأن أهل الكهف فهى متممة لما أمر به من قوله لهم : الله أعلم بما لبثوا » .

(واتْلُ) : يجوز أن يكون أمرا من التلاوة بمعنى القراءة ، أو من التُّلُوّ بمعنى الاتباع ،

والمعنى على الأول : وَدَاوِمْ أيها الرسول على تلاوة ما أُوحى إليك من القرآن بشأن أصحاب الكهف وغيرهم – أَوْدُم على قراءته – لأصحابك وغيرهم ، ليهتدى به الراشدون ، فقد اشتمل على بيان الغيب الذى لا سبيل لك إلى معرفته ، وتضمن من الآيات والمعجزات مالا سبيل للبشر إلى الإتيان بمثله ، واتضح من أسلوبه الإلهى نداءُ الحق الذى تستجيب له القلوب والأرواح ، لا يستطيع أحد أن يبدل كلمات الله تعالى التى أنزلها عليك وتولى حفظها بنفسه ، ولم يستحفظها سواه ، ولن تجد من دونه ملجأً تلوذ به عند الملمات ، فاعتمد عليه فى تبليغ رسالة ربك ومعونته إياك بالنصر والتأييد .

(وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾)

المفردات :

(بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ) : الغداة أول النهار والعشى آخره ، وقد تطلق العشى على الوقت من غروب الشمس إلى العَتَمة ، والعتمة وقت صلاة العشاء ، وتمتد لغةً إلى ثلث الليل كما قال الخليل ، والمراد من عبادتهم ربهم بالغداة والعشى أنهم يعبدونه دائماً .

(يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) : أى يقصدون بعبادتهم ذات الله مخلصين دون رياء .

(وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ) : أى لا تجاوزهم عيناك إلى غيرهم ولا تقتحمهم ، يقال : عدا الأمر وعدا عنه ، إذا جاوزه وتركه . (فُرُطاً) : ضَيَاعاً .

(سُرَادِقُهَا) : السرادق معروف كالفسطاط وهو مايحيط بالشيء ، وهو هنا مستعمل فى لهب جهنم على سبيل المجاز بالاستعارة المصرحة .

(كَالْمُهْلِ) : المهل ماءٌ غليظ كدردى الزيت – أى عكره – .

(مُرْتَفَقًا) : متكأ ، والارتفاق فى الأصل الاتكاءُ على مرفق اليد ، يقال بات فلان مرتفقا ، أى متكئاً على مرفق يده .

التفسير

٢٨-(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاوَةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) :

فى الآية السابقة أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يعلن قرآن ربه ويتلوه على الناس مؤمنهم وكافرهم ، وجاءت هذه الآية آمرة له أن يهتم بفقراء المؤمنين ويحرص عليهم ، ويدع حرصه على إيمان وجهاء الكافرين ، ولا يسمع ما اقترحوه فى حق هؤلاء الفقراء ، فإنهم غير جادين فيما زعموه من الرغبة فى الإيمان . وسبب نزول هذه الآية : أن زعماء كفار قريش كأمية بن خلف وغيره من صناديدهم : قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لو أبعدت هؤلاء الفقراء عن نفسك لجالسناك ، فإن ريح جبابهم تؤذينا فنزلت هذه الآية ، وكانوا يقصدون إبعاد أهل الصفة من الفقراء المنقطعين للعبادة ، والتلقى عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، كعمار وصهيب وابن مسعود وبلال ، والآية على هذا مكية ، وهو الذى رجحه أبو حيان ، ويؤيده ما أخرجه ابن مردويه من طريق جبير عن الضحاك عن ابن عباس ، كما تؤيده الآيات التى بعده وهو المناسب للسورة فهى مكية . وهذا يخالف ما أخرجه ابن مردويه وأبو نعيم فى الحلية ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن سلمان قال : جاءت المؤلفة قلوبهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عيينة بن حصن والأقرع بن حابس ، فقالوا : (يارسول الله : لو جلست فى صدر المجلس ، وتغيبت عن هؤلاء وأرواح جبابهم -يعنون سلمان وأبا ذر وفقراء المسلمين وكانت عليهم جباب الصوف ، جالسناك – أو حدثناك – وأخذنا عنك ، فأنزل الله تعالى : «وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ» إلى قوله سبحانه : «أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا» يتهددهم بالنار) وعلى هذا تكون تلك الآيات مدنية فى وسط السورة المكية ، والظاهر الأول لما قدمناه

والمعنى : واصبر نفسك وثَبِّتْها مع أولئك الفقراء المخلصين الذين يعبدون ربهم فى كل وقت تَتَيَسَّرُ لهم العبادة فيه ، يريدون بتلك العبادة ذاته ورضاه ، دون رياء للناس ورغبة فى ثنائهم .

(وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا واتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً) :

أى ولا تجاوزهم عيناك يامحمد ولا تقتحمهم ، فتبعدهم عن مجلسك استهانة بهم – كما اقترح عليك رؤساء قريش ليجالسوك ويستمعوا إليك – لاتفعل ذلك – تريد بتركهم وإغفالهم زينة الحياة الدنيا ، بأن يكون جلساؤك من الأشراف ، ولا تطع فى تنحيتهم عن مجلسك ، مَنْ جعلنا قلبه غافلا عن ذكرنا ومعرفتنا ، بسبب انصرافه عن الحق وبعده عن الهدى ، واتباعه لهواه ، وكان أمره ضَياعاً وهلاكاً ، حيث ترك الإيمان ، وتعلل بأسباب واهية ، فمثل هذا لاوزن له عندنا ، والوزن كل الوزن لأهل الحق الثابتين عليه وإن كانوا فقراء ، فدع هؤلاء ، ولاتذهب نفسك عليهم حسرات ؛ « إِنَّكَ لَاتَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ » .

٢٩ – (وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ) :

وقل أيها الرسول لهؤلاء المشركين الذين أغفلنا قلوبهم عن ذكرنا واتبعوا هواهم وكان أمرهم ضياعاً – قل لهم – هذا القرآن الذى أدعوكم إلى الإيمان به هو الحق من ربكم لا ريب فيه ، ولست عليكم بجبار ، فمن أراد الإيمان به عن اعتقاد راسخ ، دون اشتراط إبعاد الفقراء فليؤمن ،وله ثوابه ،ومن أراد الكفر به عن هوى وحقد وعنادٍ فليكفر وعليه عقابه .

(إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا) :

هذه الجملة تعليل للأمر السابق ، أى قل لهم أيها الرسول : ما أمرناك به من دعوتهم إلى الإيمان بما أنت عليه من الحق وتخييرهم بين الإيمان والكفر به على سبيل الوعيد ، لأنا هيأنا لهؤلاء الظالمين المعاندين المستكبرين إن استمروا على كفرهم – هيأنا وأعددنا لهم – ناراً هائلة أحاط بهم لهبها الذى يشبه السرادق فى إحاطته بهم .

(وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا) :
وإن يستغيثوا من شدة العطش ولهيب الأجواف يغاثوا بماء كعكر الزيت ، شديد الحرارة بحيث إذا قرب من أفواههم يشوى وجوههم وينضجها ، فما ظنك بأجوافهم ؟ بئس الشراب هذا الماء الذى يشبه المهل ، وساءت النار منزلا ومقرًّا . أخرج الإمام أحمد والترمذى وابن حبان والحاكم وصححه وآخرون عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى – كالمهل – (كعكر الزيت ، فإذا قربَ إليه سقطت فروة وجهه فيه) .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾)

المفردات :

(جَنَّاتُ عَدنٍ) : جنات إقامة واستقرار ، من عَدَنَ بالمكان أقام به واستقر فيه .
(أساوِرَ) : جمع أسورة ، جمع سوار بكسر السين وضمها ، وهو مافى الذراع من الحلى .
(من سُنْدُسٍ) : السندس رقيق الديباج وهو مُعَرَّب بلاخلاف ، قيل أصله بالهندية سندون وغيرته الروم إلى سندوس ، ثم عرب بحذف الواو ، وقيل أصله فارسى .
(وإستبرق) : هو غليظ الديباج كما قال قتادة وعكرمة ، أو هو ديباج منسوج بذهب كما قال ابن بحر .
(الأَرَآئِكِ) : السُّرُرُ فى الحجال ، فإن لم توجد فى الحجال فهى سُرُرٌ وليست أرائك ، أخرجه البيهقى عن ابن عباس .

التفسير

٣٠ـ (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً) :

بين الله فى الآية السابقة سوء مصير الكافرين ، وبين فى هذه الآية والتى تليها حسن مصير المؤمنين ، وبضدها تتميز الأشياءُ .

والمعنى : إن الذين صدقوا بما أُنزل الله عليك من الحق ، وعملوا بعد إيمانهم الأعمال الصالحات التى دعوتهم إليها حسبما أوحى إليك ربك ، إنا لانضيع أجر من أحسن منهم عملا من تلك الأعمال بل نحسن جزاءه عليه ، فكيف بالذى تَرَقَّى فى عمل الصالحات ، وشغل نفسه بالطاعات والخيرات ، إن أجره لا شك عظيم ، كما يصوره قوله سبحانه :

٣١ـ(أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ) :

فهذه الجملة مستأنفة لبيان عظمة أُجور المؤمنين الصالحين .

والمعنى : أُولئك المؤمنون المواظبون على عمل الصالحات ، لهم ثواباً على إيمانهم وصلاحهم جناتُ إقامةٍ واستقرار ، لا يبرحونها بأنفسهم ولا يخرجهم منها غيرهم ، فهم فيها خالدون تجرى من تحت غرفهم وقصورهم الأنهار وهم فيها آمنون ناعمون ، يحلون فيها بأذرعتهم من أساور من ذهب لتزداد رفاهتهم ومتاعهم ونعيمهم ، ولبس الأساور فى الآخرة للرجال لاعيب فيه ، لأنه بين قوم يعتادونه ، بخلافه فى الدنيا فإنه بين قوم لا يعتادونه ، فلهذا يعيبونه ، فالشىءُ يكون مستحسناً فى حال ، ومستهجناً فى حال آخر .

(وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ) :

ويلبس أهل الجنة ثياباً خضرًا من رقيق الديباج وغليظه ، فوق تحليتهم بأساور من ذهب ، زيادة فى بهائهم ومتعتهم ، فإن الخضرة تمنح البهاء وتسر النفس أكثر من غيرها من الألوان ، ولهذا قال القائل : ثلاثة يذهبن الحزن . الماءُ والخضرة والوجه الحسن .

(مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً) :

أى أنهم يتمتعون هذا المتاع فى الجنة ، فى حال كونهم متكئين فيها على السُّرُر داخل الحجَال[١] نِعْمَ الثواب ذلك الذى وعدوا به ، من الجنة ونعيمها المقيم ، وحسنت الجنة دار إقامة ، بما اشتملت عليه من فنون الجمال ، وألوان النعيم .

(* وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾)

المفردات :

(وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ) : أى أحطناهما بنخل . يقال حَفَّ القومُ بفلان يحُفُّون حفًّا طافوا به والحِفاف الجانب . (بِنَخْلٍ) : النَّخْل يؤنث ويُذَكَّر اسم جمع ، واحدته نخلة وجمعه نخيل .

(أُكُلَهَا) : الأُكل بسكون الكاف وبضمها الثَّمَرُ والرزق والحظ من الدنيا .

(وكَانَ لَهُ ثَمرٌ) : الثَّمرُ محركة حمْل الشجرة ، وأنواع المال ، الواحدة ثَمرةٌ بفَتحاتٍ وثَمرةٌ كَسَمُرةٍ ، والجمع ثِمار كرجال ، وجمع الجمع ثُمُرٌ بضمتين .

(١) الحجال جمع حجلة . وهى بيت يزين بالثياب والستور للعروس — مختار الصحاح .

(وَهُو يُحاوِرُه) : يُراجعه ، يقال تحاوروا أى تراجعوا الكلام بينهم .

(وَأَعَزُّ نَفَرًا) : النفر محركة جماعة الرجال من ثلاثة إلى عشرة ، وقيل إلى سبعة

(أَنْ تَبِيدَ) : أن تهلك وتفنى . (خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا) : المنقلب العاقبة والمصير .

التفسير

٣٢ - (وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ . . .) الآية .

المعنى : واضرب أيها النبى مثلا للمؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى مع مكابدتهم ألم الحرمان والفقر ، وللكافرين الذين استنكفوا عن مجالسة الفقراء من المؤمنين . وجحدوا فضل مُعطيهم مع تقلبهم فى نعيمه ، لتبين بهذا المثل للفريقين ولكل من يتعزز بالدنيا ويغترّ بها - لتبيِّن - حالًا فيها عبرة للمعتبرين ، وتبصرة للمستبصرين .

قال الكلبى : نزلت هذه الآية فى أخوين مخزوميين من أهل مكة أحدهما مؤمن وهو مسلمة عبد الله بن عبد الأسود . والآخر كافر هو الأسود بن عبد الأسود . وعن ابن عباس أنهما ابنا ملك من بنى إسرائيل ، أنفق أحدهما ماله فى سبيل الله تعالى وكفر الآخر واشتغل بزينة الدنيا وتنمية ماله . ونظرا لهذا الخلاف نرى عدم التقيد برواية منهما ، فكما يحتمل أن القصة واقعية يعلم الله صاحبيها ، يحتمل أيضاً أن تكون مثلا ضربه الله لهذه الأمة لتزهد فى الدنيا وترغب فى الآخرة ، وجعله زجرا وإنذارا - ذكره الماوردى .

٣٢ - (جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنا بَيْنَهُمَا زَرْعاً) :

أى جعل الله لأحد الرجلين - وهو الكافر - بستانيْنِ من كروم طابت أصولها . وتنوعت ثمارها مذاقاً ولونًا ، وكلام الراغب يشير إلى أن العنب مشترك بين الثَّمَر والكرم وهو شجرها وفق إطلاق اللغة ، وقد أفادت الآية الكريمة أن النخل محيط بالجنتين من جميع جهاتهما لتصون الأعناب وتحفظها ، وأن الزرع وسطها ، لتكونا جامعتين للفواكه والأقوات على هذه الصورة الرائعة والوضع الأنيق .

٣٣ - (كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا) :

المعنى أن كل واحدة من الجنتين أعطت ثمرها تامًّا كاملاً طيباً ، ولم تنقص منه شيئاً ؛ فليست كسائر البساتين ، فإنها غالباً يكثر ثمرها فى عام ويقل فى آخر بسبب مايحدث لها

فيه من تقلبات جوية ، وآفات أرضية أو سماوية ، وربما لا تثمر أصلًا فى بعض الأعوام نتيجة لما ينزل بها من نوازل ، تعوقها عن التفتح وإخراج الزهر المفضى إلى الثمر ،

(وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا) : وأجرينا بين الجنتين نهرًا غزيرَ الماء ، تيسيرًا لسقيهما ، وزيادة فى جمالهما وطيب هوائهما ، وتقديم إيتاء الأكل فى قوله تعالى : « كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا » على تفجير النهر فى قوله تعالى : « وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا » من باب تقديم الغاية على الوسيلة ، والمنفعة على سببها لأنها هى المقصودة من إنشاء البساتين ، وتفجير الأنهار .

٣٤ - (وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا) :

المعنى : وكان لصاحب الجنتين ثمر من أحمال أشجار أخرى ، وكذا من أنواع المال المثمر من ذهب وفضة وحيوان وغير ذلك كما فسره ابن عباس وقتادة وغيرهما ، وعلى هذا فالثمر لفظ عام ، يطلق على ثمار الأشجار ، وعلى جميع أنواع المال المثمر ،

وهذا الكافر بدل أن يشكر نعم الله عليه . دفعه غروره وتعلقه بمباهج الحياة الدنيا إلى أن يقول لصاحبه المؤمن :

(أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا) : قال له ذلك وهو يراجعه الكلام فى إنكاره البعث وفى تعييره له بالفقر ، وفخره عليه بالقوة والمنعة ، أى أنا أوفر منك مالًا تعددت مصادره ، وتنوعت موارده ، وأعز حشما وأعوانا .

قال قتادة « تلك والله أمنية الفاجر - كثرة المال وعزة النفر » .

٣٥ - (وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا) :

أى أنه تابع اعتزازه وغروره ، وتمادى فى إعراضه وكفره ، ودخل جنته وهو ضار لنفسه حيث عرضها للهلاك ، وعرض النعمة للزوال. لوضعه الشىء فى غير موضعه . فكان اللائق به أن يعرف للنعمة حقها من شكر المنعم بها ، والتواضع لمجريها جل شأنه . لا ماوقع منه من إنكار وكفر ، حكاه الله عنه بقوله سبحانه :

(قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا) : وهذا استئناف أجيب به عن سؤال مقدر نشأ من ذكر دخول جنته وهو ظالم لنفسه ، كأنه قيل : فماذا قال حينئذ ، فقيل : « قال ما أظن

أن تبيد هذِهِ أبدا » : أى ما أعتقد أن تهلك هذه الجنة مدى الحياة ، فالمراد بالأبديّة طول المكث . لا معناها المتبادر ، وإنما قال ذلك لطول أمله فى الحياة ، وغفلته عن نعْمة الله .

والعدول عن التّثنية إلى الإفراد فى قوله سبحانه : « وَدَخَلَ جَنَّتَهُ » لاتصال إحداهما بالأُخرى كأنهما جنة واحدة . أولأن الدخول لايمكن أن يكون فى الجنتين معا فى وقت واحد وإنما يكون فى واحدة فواحدة .

٣٦ - (وَمَآ أَظُنُّ السَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَباً) :

أى أنه تمادى فى كفره بإنكاره البعث اعتقادًا منه ، وردا على صاحبه لما وعظه وخوّفه قيام الساعة ، حيث قال : « وَمَآ أَظُنُّ السَّاعَةَ قَآئِمَةً » أى لاأحسبها كائنة وقائمة فيا سيأتى .

(وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَباً) : أى أنه إن رد إلى ربه مبعوثاً - على سبيل الفرض والتقدير - كما زعم صاحبه ليجدنَّ فى الآخرة خيرًا من جنته فى الدنيا مرجعاً ومصيرًا تمنياً على الله وادعاء لكرامته عليه ، ومكانته عنده ، واعتقادًا بأنه ما أولاه الجنتين إلا لاستحقاقه . يقول هذا ولم يدر بخلده أنه إمهال واستدراج . حتى إذا أخذه لم يفلته [1] .

(قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّى أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾)

(١) اقتباس من حديث الشيخين عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : » إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » .

المفردات :

(ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا) : أى ثم جعلك سَوِيًّا معتدلًا .

(لَكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّى) : أصله لكن أنا هو الله ربى ، فحذفت همزة أنا ، وأدغمت نون (لكن) فى نون (أنا) بعد حذف همزتها - قاله الكسائى والفراء وغيرهما .

(وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ) : أى ينزل الله عليها عذابًا مقدرًا محسوبًا - ينزله - من السماء ، كالثلج والبرد ونحوهما . (صَعِيدًا زَلَقًا) : أى أرضًا لانبات فيها ولا تثبت عليها قدم ، لما فيها من الوحل أو من الرمال التى تزل فيها الأقدام (مَآؤُها غوْرًا) : أى غائرا فيها وذاهبا فى طبقاتها البعيدة . (فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا) : أى لا تقدر أن ترد الماء الغائر بأية حيلة من الحيل .

التفسير

٣٧ - (قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ . . .) الآية .

استئناف كما سبق فى قوله سبحانه : « قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ . . » كأن سائلًا سأل عما راجعه به صاحبه المؤمن واعظًا له ، وزاجرًا إياه عما هو فيه من الكفر بالله عُجْبًا وغرورًا فأجيب السائل بالآية .

والمعنى : أن صاحبه المؤمن - حال محاورته له توجه إليه منكرًا عليه ماوقع فيه من جحود وكفر ، فقال له : (أَكَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ) : أى كيف تكفر بالذى خلقك من تراب فى ضمن خلق أصلك آدم عليه السلام ، لما أن خلق كل فرد من أفراد البشر له حظ من خلق أصله ، فيكون ذلك الكافر مخلوقًا من تراب لأنه مادة أصله الذى تناسل منه ، وقيل « خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ » لأنه أصل مادتك التى نشأت منها إذ أنها ناشئة عن أغذية نبتت من التراب (ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ) : وهى مادة خلقك القريبة بعد خلق أصلك . وقد بدأ سبحانه خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين .

(ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا) : أى جعلك رجلًا فى أحسن تقويم حيث أنشأك معتدل القامة سوىَّ الخَلْق . منذ طفولتك حتى أصبحت رجلا ، تلى أمورك وتصرف شئونك .

٣٨ - (لَكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا) :

المعنى : أنا لا أقول بمقالتك الدالة على الكفر من إنكار البعث وغيره . لكن أنا أقول هو الله ربى . فأنا مؤمن مُوحِّد ، أعترف له سبحانه بالربوبية والوحدانية .

وبقوله هذا أثبت لصاحبه الشرك تعريضًا . للإيذان بأن كفره كان بطريق الشرك . لأنه لمَّا أنكر البعث فقد عجَّز البارى ومن عجَّزه فقد سوَّاه بخلقه فى العجز وهو شِرك . أو المراد من الشرك مطلق الكفر ، وقد أُطلق الشرك عليه كثيرا وجعلوا منه قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ » فأُريد من الشرك الكفر الشامل لما عليه اليهود والنصارى وما عليه غيرهم ، ويقوِّى هذا الإطلاق قوله تعالى فيما سبق حكاية عن الصاحب الكافر : « وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى » فهو مُقِرٌّ بعدم الشرك والله سبحانه هو ربه لا سواه . ومع ذلك أُطلق عليه الشرك هنا تعريضا نظرا لأنه يراد منه مطلق الكفر .

٣٩ – (وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ . . .) الآية .

فى هذه الآية حث وتحضيض من المؤمن للكافر على ما تضمَّنته من النصيحة ، وتوبيخ له على تركها . أى هلا قلت حين دخلت جنتك ونظرت إلى كمال تنسيقها ومختلف ثمارها. « مَا شَآءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ » فحمدت الله على ما أنعم به عليك ، حيث أعطاك من المال والولد والرجال ما لم يعط غيرك ، اعترافا منك بقوته ، وإقرارا بعجزك ، وإيمانا بأنه لو شاء لسلبك هذا العطاء الذى جعلته موضع فخرك واعتزازك ، لأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . كما قال بعض السلف : من أعجبه شىءٌ من ماله وولده فليقل ما شاء الله لا قوة إلا بالله . . وروى الإمام أحمد بسنده عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة لا حول ولا قوة إلا بالله) .

(إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا) :

٤٠ – (فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِى خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ) :

أى إن ترنى أمامك أقل منك مالًا وأولادًا وأعوانًا ، فأملى فى فضل الله يجعلنى أتوقع أن يبدل ما بى وبك من الفقر والغنى فيرزقنى لإيمانى جنة خيرا من جنتك التى كانت سببًا فى طغيانك وكفرك بربك .

(وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَآءِ) : ويبعث على جنَّتك من السماء قَدَرا محسوبا يكون سببا فى هلاكها .

(فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا) : أى أرضًا بلقاء لا نبات فيها ملساء لا تثبت عليها قدم حيث تزلق وتزول عن مكانها . بمعنى أنها تصبح مسلوبة المنافع حتى منفعة المشى عليها . فتكون بذلك أضرّ أرض بعد أن كانت أنفع أرض .

٤١ - (أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا) : أو يُصبح ماؤُها غائرًا أوذاهبًا فيها بحيث لا يمكنه استخراجه من جوفها ، ولا تقدر على تفجيره بمختلف الوسائل والحيل ، والتعبير بغَوْرًا . . بدل غائرًا . . للمبالغة فى ذهاب مائها . . كرجل عدْل بدل عادل ، للمبالغة فى عدله – وإلى هنا انتهت مناظرة المؤمن لصاحبه الكافر وإنذاره . ويحكى الله عاقبة كفره وغروره فيقول سبحانه :

(وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾)

المفردات :

(وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ) : أهلك ماله كله . مأخوذ من الإحاطة والاستدارة حول الشىء من جميع جهاته ، تمكنًا منه وغلبة عليه ، ثم استعمل فى كل إهلاك . (يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ) : يضرب باطن إحدى يديه على ظاهر الأخرى . ثم يعكس الأمر مرارًا ندمًا على ما حدث ويجوز فى معناها غير ذلك . وسنعرض له فى الشرح . (خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا) : ساقطة على أعمدتها التى هوت قبلها . (وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ) : أى جماعة وليس للفئة واحد من لفظها .

(وَما كَانَ مُنتَصِرًا) : أى ممتنعًا عما ينزله الله به . (هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ) : الولاية بفتح الواو وكسرها : النصرة والغلبة .

التفسير

٤٢ - (وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا . . .) الآية .

الآية عطف على مقدر. أى وقع بهذا الكافر ما خوفَّهُ منه صاحبه المؤمن «وأُحِيطَ بِثَمرِهِ » بإهلاك جنته وما فيها من نخيل وأعناب وزروع . والظاهر أن ذلك كان ليلًا لقوله سبحانه :

« فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا[1] » أى فأصبح يضرب باطن إحدى يديه على ظاهر الأخرى ، ثم يعكس صنيعه ويكرره مرارًا ندمًا وحسرة على ما أنفق فى عمارتها من مال وما بذل فى تنسيقها من جهد ، وما علق على بقائها الدائم من أمل حيث كان يقول : « مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِ أَبَدًا » ويفسر أبو حيان تقليبه كفَّيه بأنه يبدى باطن كلتيهما ، ثم يعكس ليبْدو ظاهرهما ، ويكرر ذلك من شدة الندم .

فَعَلَ ذلك حين رآها (وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا) : أى حين رأى أشجار الكروم ساقطة على أعمدتها التى تصنع لحملها حفاظًا عليها وذلك لسقوط تلك الأعمدة لما أصاب الجنة من عذاب السماء الذى جعلها صعيدًا زلقا .

وذِكْرُ هلاك الكروم مُغْنٍ عن ذكر هلاك النخيل والزروع لأنها حيث هلكت وهى على عروش تسندها وتقويها . فهلاك غيرها بالطريق الأَولى .

(وَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا) : أى يا ليتنى عرفت نعم الله علىّ وعرفت أنها كانت بقدرته فلم أشرك به ، وكأنه تذكر موعظة أخيه له . لمَّا أبصر ما نزل بجنته ، وعلم أن هلاكهما من قبل الشرك وبسببه ، لذلك تمنى لو لم يكن مشركا فلم يصبه ما أصابه . وقيل هذا القول منه توبةٌ عن الشرك . وندمٌ على ما وقع منه . فيكون استحداثا للإيمان . لأن ندمه على الشرك فيما مضى . يشعر بأنه آمن فى الحال . فكأنه قال آمنت الآن وليت ذلك كان أولًا .

٤٣ - (وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ . . .) الآية .

المعنى : ولم يكن لهذا الكافر ولد ولا عشيرة ممن افتخر بهم واستعز ، يقدرون على

---

(١) هذا إذا لم تكن أصبح بمعنى صار ، فإن كانت كذلك فلا تشير الآية إلى زمن الهلاك حينئذ.

نصرته بدفع الإهلاك عن جنته أو ردٍّ ما هلك ، أو الإتيان بمثله من دون الله . لأنه سبحانه هو الفعال لذلك كله . فهو القادر وحده وبيده مقاليد السموات والأرض .

(وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا) :أى وما كان ممتنعا عن انتقام الله بما زعم لنفسه من قوة وجاه .

٤٤ - (هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ . . .)[١] الآية .

هذه الجملة تأكيد وتقرير للآية السابقة والمعنى فى هذا الموطن وتلك الحال التى حلّت بجنته . لن يجد مُنْقِذا له يدفع عنه ما نزل به . لأن النصرة والغلبة لله الحق. فلا يقدر عليها أحد غيره .

واستظهر أبو حيان كون هنالك إشارة إلى الدار الآخرة . ويكون الكلام تمّ عند قوله : « مُنتَصِرًا » أى تقع الموالاة لله الحق يوم القيامة من كل أحد - مؤمن أو كافر - حين يقع العذاب لقوله سبحانه : « فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وحْدهُ وكَفَرْنَا بِما كُنَّا بِهِ مُشْرِكِين »[٢] . (هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا) : أى الله خير جزاء فى الدنيا والآخرة لمن آمن به واتبع سبيله ، وخير عاقبة لأوليائه ، بمعنى أن الأعمال التى تكون له سبحانه . ثوابها خير ، وعاقبتها حميدة .

وليس ثَمَّ غير الله يُرْجى منه نفع حتى يكون رجاءُ الله خيرًا ، من رجائه ولكنه ورد حسبما يقع فى ظن الجهال لا بحسب الواقع تقريعا لهم وتوبيخا ، وقد يقال إن التفضيل هنا على غير بابه ، فلا ثواب ولا خير يومئذ إلا لله ظاهرًا وباطنًا .

(وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾)

---

(١) قرأ الأعمش وحمزة والكسائى الولاية بكسر الواو والباقون بفتحها وهما بمعنى واحد بمعنى النصرة والغلبة وقيل الولاية بالفتح من الموالاة كقوله تعالى (الله ولى الذين آمنوا)من الآية ٢٥٦ البقرة،وبالكسر بمعنى السلطان والقوة، وقال أبو عبيدة إنها بفتح الواو للخالق وبكسرها للمخلوق .

(٢) سورة غافر : آية ٨٤ .

المفردات :

(فَأَصْبَحَ هَشِيمًا) :يابسا متفتتا من الهشْم وهو كسر الشيء اليابس .

(تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ): تفرقه وتنسِفه. يقال ذَرَتْه الريح تذْروه ذرْوًا : إذا طارت به وفرَّقته ، ومثله أذرته تُذْرِيه إذراءً .

التفسير

٤٥ - (وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا . . .) الآية : أى اذكر للناس ، ولا سيما هؤلاء المتكبرون الذين سألوك طرد فقراء المؤمنين - اذكر لهم - مثل الحياة الدنيا ، ببيان ما يشبهها فى زهرتها ونضارتها . وعدم استقرارها . وسرعة زوالها حتى لايطمئنوا إليها ولا يعكفُوا على التعلق بها ، ولا يعرضوا عن الآخرة دار الجزاء والبقاء .

أَوْ بيِّنْ لهم صفتها العجيبة التى تشبه المثل فى غرابتها ، هذه الحياة :

(كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ) : أى أنها تشبه حال النبات الذى أنبته الله بماءٍ كثير أنزله من السماء، فاختلط بهذا الماء نَباتُ الأَرض بعد أن روى منه وامتلأت به عروقه ، فنما وكثر أو اختلط بسبب المـــاء نباتُ الأَرض . فالتف بعضه ببعض بعد أن كثر واستوى على سوقه . هذا النبات الجميل الناضر لم يلبث حتى أسرع إليه الفناءُ بدون إبطاءٍ .

ويشير إلى ذلك الإتيان بالفاء فى قوله سبحانه :

(فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ) : أى فأصبح متكسرا متفتتا من اليُبْسِ ، تفرقه الرياح وتنسفه وتذهب به وتجيءُ ، فالمشبه فى الآية : الحياة الدنيا فى جمالها وزينتها ثم فنائها، والمشبه به : الهيئة المنتزعة من الجملة وهى حال النبات يكون أخضر مهتزا ثم يصير هشيما تطيره الرياح حتى كأنه لم يكن .

(وَكَانَ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا) :أى أنه سبحانه على كل شيء من الأشياء - ومن جملتها الإيجاد والإفناء - كامل القدرة يفعل ما يشاءُ جل شأْنه .

(ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾)

التفسير

٤٦ - (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا . . .) الآية .

فى هذه الآية بيان لما كانوا يفتخرون به من زينة الحياة الدنيا متمثلة فى المال والبنين لأَنَّ فى المال جمالا ونفعا يصلون به إلى مآربهم وكل ما تقتضيه حياتهم ، وفى الأَولاد قوةً ودفعا يبلغون بهما إلى ما ينشدونه من عزة ومنعة . كما وقع فى محاورة الصاحب الكافر لصاحبه المؤمن حيث قال له على سبيل التعالى والفخر : « أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا » .

والمعنى : إن ما تفتخرون به من المال والبنين شىءٌ يتزين به فى الحياة الدنيا وقد عرفتم شأْنها فى سرعة زوالها . وقرب اضمحلالها ، فكيف زينتها التى هى صفة من صفاتها ،إنها تزول وتفنى قبل زوالها - فلا تجعلوها كل همكم ، وتعرضوا عن الآخرة دار الكرامة والجزاء بل اعملوا لخيرى الدنيا والآخرة مصداقا لقوله تعالى : « وابتَغِ فِيمَآ آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ولَاَتنسَ نَصِيبَكَ مِن الدُّنْيَا [1] » .

والآية ردٌّ على عيينة بن حصن وأَمثاله ،الذين افتخروا بالغنى والشرف على الفقراء والمستضعفين من المؤمنين . إذ بينت لهم أن ما كان من زينة الدنيا فهو غرور يمر ولا يبقى ، وإنما يبقى ما كان زاداً فى القبر ، وعدة فى الآخرة ، حيث قال سبحانه :

(وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً) :

قال ابن عباس وابن جبير وأَبو ميسرة : الباقيات الصالحات هى الصلوات الخمس وقال ابن عباس فى رواية أُخرى : هى كل عمل صالح من قول أَو فعل يبقى للآخرة : ا هـ

(١) سورة القصص ، من الآية ٧٧

فيدخل فيه كل عمل جادٍّ لخدمة الإسلام والذود عنه بالنفس والمال والمقال، وكل عمل ينصر حقا أو يدفع باطلا . أو يعاون محتاجا أو ينشر علما – وقال الجمهور هى الكلمات المأثور فضلها : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . خرجه مالك فى موطئه عن عمارة بن صياد عن سعيد بن المسيب أنه سمعه يقول فى الباقيات الصالحات : إنها قول العبد الله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وأخرج الإمام أحمد والحاكم وصححه ، وغيرهما عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(استكثروا من الباقيات الصالحات . قيل وما هى يارسول الله قال : التكبير والتهليل والتسبيح والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله).

وهناك أقوال أُخرى فى معنى الباقيات الصالحات ، وحسبنا ما ذكرناه .

ويدخل فى عموم معنى الباقيات الصالحات . أعمال فقراء المؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى دخولا أوليًّا ، فإن لهم من كل نوع من أنواع الخيرات الحظ الأوفر ، وتلك الأعمال باقية دائمة لبقاء عوائدها عند فناء ما تطمح إليه النفس من حُظوظ الدنيا ، وحسبها أنها عند ربك وفى كنفه . وتتحقق خيريتها فى ثواب جزيل يعود على صاحبها ، وأمل عظيم ينال به فى الآخرة ما كان يؤمله فى الدنيا ، كما يشير إلى ذلك قوله جل شأنه : « خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا »، أما زينة الدنيا من المال والبنين فليس لها ذلك إذ هى مضمحلة زائلة حيث نسبت إلى الحياة الدنيا وهى بما فيها ومن فيها إلى فناء ، فمن اهتم بزينتها وقصَّر فى عمل الآخرة . باءَ بالخيبة والخسران .

وتقديم المال فى الآية علىّ البنين لأن الزينة به أظهر ، وهو ميسور لكل أحد ، فى أى وقت وحين غالباً .

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾

المفردات :

(نُسَيِّرُ الْجِبَالَ) : ننقلها ونزيلها من أماكنها على وجه الأرض. (وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً) : ظاهرة ليس عليها ما يسترها من جبل وشجر ونبات وبناء (وَحَشَرْنَاهُمْ) : جمعناهم من كل صوب. (فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً) : فلم نترك منهم أحداً دون حشر .

(وَوُضِعَ الكتبُ) : « أل » فى الكتاب لجنس الكتب ، والمقصود كتب صحائف الأعمال .

(مُشْفِقِين) : خائفين مما فى كتبهم. (يَوَيْلَتَنَا) : الويلة الهلاك وحلول الشر والحسرة .

(إِلَّآ أَحْصَاهَا) : أى عدها وأحاط بها .

التفسير

٤٧ - (وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ . . .) الآية .

يخبر الله سبحانه بهذه الآية وما بعدها عن أهوال يوم القيامة ، وما يكون فيه من الأُمور العظام ، تحذيراً للمشركين وترهيبا .

والمعنى : واذكر لهم أيها النبي يوم ننقل الجبال . ونزيلها من أماكنها . ونسيِّرها على هيئاتها كما نسيِّر السحاب يشير إلى ذلك قوله تعالى : «وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ

تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ »[1] . ثم تتشقق وتتفتت فتكون كحبات الرمل المتناثرة كما قال سبحانه : « وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا »[2] . ثم تصير غبارا منتشرا تسوقه الرياح حيث أراد الله كما قال تعالى : « وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنْبَثًّا »[3] وفى نهاية أمرها . تصبح كسراب يُرى من بعيد حتى إذا جئته لم تجد شيئا ، وذلك لتفرق أجزائها تفرقا تاما كما قال سبحانه : « وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا »[4] .بعد هذا الصنيع من القوى القادر ، يظهر سطح الأرض مستويا ، لا عوج فيه ولا أمتا أى لا انخفاض به ولا ارتفاع . ويشير إلى ذلك قوله جل شأنه :

(وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً) : الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم أولكل من تتأتى منه الرؤية ، أى وترى الأرض من جميع جهاتها بادية ظاهرة ، ليس عليها ما يسترها أو يحجب جزءا منها من أودية وكُثبان ، وجبال وأشجار وأبنية وبحار ، وزروع وأعشاب ، حيث اجتثت جبالها وهدمت أبنيتها ، واقتلعت أشجارها ، وغاضت بحارها ، وانمحت زروعها وأعشابها وغدت قاعا صفصفا[5] . أى أرضا مستوية جرداء .

وقيل بارزة أى برز ما فيها من الكنوز والأموات ، كما قال تعالى : « وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ »[6] .واستُغنى بذكر زوال الجبال فى الآية عن ذكر زوال غيرها.لأنه يُعلم من ذكر زوالها ، زوال غيرها بطريق الأولى : إذ هى أعظمها وأثبتها وأضخمها .

(وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا) : أى وجمعناهم إلى الموقف من كل حدب وصوب بعد قيامهم من قبورهم ، فلم نترك منهم أحدا ، هانَ شأنه أو عَظُم كما قال سبحانه : «قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ »[7] .وأُثر التعبير بالماضى فى قوله : «وَحَشَرْنَاهُمْ »للدلالة على تحقق وقوع الحشر التابع للبعث الذى أنكروه حيث قالوا : « وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ » تكذيبا لهم وتقريعا ؟ .

---

(١) سورة النمل من الآية — ٨٨ (٢) سورة المزمل الآية — ١٤ (٣) سورة الواقعة الآيتان — ٥ ، ٦

(٤) سورة النبأ الآية — ٢٠ (٥) القاع : المستوى من الأرض ، وزاد ابن حارس الذى لا ينبت .

(٦) سورة الانشقاق الآية ٤ (٧) سورة الواقعة الآيتان ٤٩ ، ٥٠

٤٨ - (وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا . .) الآية .

أى أنهم يُحضَرُون يوم الموقف العظيم لا يتخلف منهم أحد فيقفون مجتمعين غير متفرقين ، ليقضى الله بينهم بالحق وفى قوله : « صَفًّا » ما يشير إلى اجتماعهم صفوفا ، وفى الحديث الصحيح : « يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد صفوفاً » . وقال مقاتل يعرضون صفا بعد صف لا أنهم صف واحد .

(لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) : تقريع للمشركين المنكرين للمعاد ، وتوبيخ لهم على رءوس الأشهاد ، وذلك بأن يقال لهم لقد جئتمونا على هيئة تشبه الهيئة التى كنتم عليها عند خلقكم أول مرة ، حفاة عراة غُرْلا أى غير مختونين ، وفى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غُرْلا . قلت يارسول الله الرجال والنساء ، ينظر بعضهم إلى بعض قال : يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض » . وفى رواية أخرى « الأمر أشد من أن يهمهم ذلك » .

أويقال لهم : لقد جئتم وليس معكم شىء مما كنتم تفتخرون به من الأموال والأنصار لقوله تعالى : « وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ »[1] . أى بعثناكم بعد الموت فرادى كهيئتكم عند خلقكم وإحيائكم أول مرة بلا مال ولا ولد ولا سلطان .

(بَلْ زَعَمْتُمْ أَن لَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا) : انتقال لمواجهة منكرى البعث بالتوبيخ والتقريع أى ادعيتم فى الدنيا أن لن تبعثوا ، ولن نجعل لكم موعدا نُنْجِزُ فيه ماوعدنا من البعث وتوابعه ، وقد خاب ظنكم ، وكذب زعمكم ، وتحقق عيانا ما أنكرتموه ، فقد أحييناكم بعد موتكم وجئتمونا للحساب .

٤٩ - (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ..) الآية .

الآية معطوفة على قوله : « وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا » داخلة تحت الأمور الهائلة العظيمة من أهوال يوم القيامة التى أريد تذكيرهم بها .

---

(١) سورة الأنعام من الآية - ٩٤

والمعنى : أن الله سبحانه وتعالى يضع الكتاب . ويُقصَد به صحائف الأعمال وكتبها ، وذلك بِجَعلها فى أيدى أصحابها يأخذ كل منهم كتابه بيمينه أو بشماله ، وحينئذ تُبْصِر العصاة جميعاً خائفين مما فى الكتاب من الجرائم التى اقترفوها . والذنوب التى باءُوا بإثمها ، ويدخل فيهم منكروالبعث دخولا أوليًّا .

(وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَايُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا) :

أى أنهم عند وقوفهم على كل ما فيه وعلمهم بما فى تضاعيفه . ترتفع منهم أصوات الحسرة والحيرة . ويتمنون الموت والهلاك حتى لا يروا العذاب الأليم ، وقد دعاهم إلى ما صنعوا ، ماوجدوه فى الكتاب الذى وضع فى يد كل منهم مما يدعو إلى العجب والفزع الذى أشار إليه قولهم : « مَالِهَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ » إلخ حيث إنه ليس له نظير ولا مثيل من الكتب الأخرى . فهو على حال لم يَتْرك معها صغيرة ولا كبيرة إلا عدها وأحاط بها. قال سعيد بن جبير : إن الصَّغيرة اللَّمم كالمسيس والقُبَل ، والكبيرة كالمواقعة والزنى .

قال قتادة : اشتكى القوم الإحصاء وما اشتكى أحد ظلما ، فإياكم ومحقرات الذنوب فإنها تجتمع على صاحبها حتى تهلكه ، وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية يقول : ياويلتاه ضجوا إلى الله تعالى من الصغائر قَبْلَ الكبائر .

(وَوَجَدُوا مَاعَمِلُوا حَاضِراً) : أى ماعملوه فى الدنيا وجدوه مسطورا فى كتاب كل منهم أو وجدوه حاضرا بين أيديهم حالا غير مؤجل ، أو وجدوا جزاء أعمالهم .

(وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) :

أى لا يأخذ أحدا بجرم أحد ، ولا يأخذه بما لم يعمله ، وقد وعد سبحانه بإثابة المطيع والزيادة فى ثواب ماعمله مما أَمَرَهُ بِهِ ، وارتضاه منه ، كما وعد بتعذيب العاصى بمقدار جرمه من غير زيادة على ماعمل ، وأنه قد يغفر له ماعدا الكفر كما قال تعالى : « إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَادُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ »[1] . سبحانه جل وعلا يفعل مايشاءُ ويختار .

---

(١) سورة النساء من الآية ١١٦

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾)

المفردات :

(اسْجُدُوا لِآدَمَ) : للسجود معنيان ؛ معنى لغوى وهو : التواضع والخضوع تحية وتعظيما بانحناء وغيره لا بوضع الجبهة على الأرض. ومعنى شرعى :بوضع الجبهة على الأرض للعبادة ولا يكون هذا إلا لله تعالى .

(فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ) :أى فخرج عن أمره . لأن معنى الفسق الخروج ،من قولهم فسق الرُّطَب فسوقًا إذا خرج عن قِشْرِه . وفعله فسق كنصر وضرب وكرُم فسقا وفسوقا . وقيل صار فاسقاً بسبب عصيانه أمر ربه فعن للسببية .

التفسير

٥٠ ـ (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ...) الآية .

أى . واذكر أيها الرسول وقت قولنا لهم « اسْجُدُوا لِآدَمَ » سجود تشريف وتكريم وفق المعنى اللغوى للسجود ؛ وهو يحصل بانحناء ونحوه دون وضع الجبهة على الأرض ، وهذه تحية أبطلها الإسلام . وأحل السلام والمصافحة محلها .

أما وفق المعنى الشرعى فلا لأنه لا يتحقق إلا بوضع الجبهة على الأرض قصدا إلى العبادة وهو مأمور به لله وحده . (فَسَجَدُوا إِلَّآ إِبْلِيسَ) : أى سجد الملائكة جميعًا امتثالا وطاعة ما عدا إبليس، فإنه لم يكن من الساجدين إباءً منه واستكبارا ، وقد حمله على هذا التمرد أنه (كَانَ مِنَ الْجِنِّ) :فهو أجنبى عنهم حيث خلق من مارج من نار . وخلقوا من نور . فقد ثبت فى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« خُلِقَت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار » وهذا ظاهر فى أنه ليس منهم بل كان معهم ومعتبرا فى عدادهم لوجوده بينهم ، ولذا قال الحسن فيما أخرجه عنه ابن المنذر وابن أبى حاتم : « قاتل الله أقوامًا زعموا أن إبليس من الملائكة والله يقول : « كَانَ مِنَ الْجِنِّ » وأخرج عنه ابن جرير وابن الأنبارى فى كتاب الأضواء وأبو الشيخ فى كتاب العظمة أنه ماكان إبليس من الملائكة طرفة عين ، وإنه لأَصْل الجن كما أن آدم عليه السلام أصل الإنس .

ولكون إبليس عليه اللعنة من الجن ، وليس من الملائكة استكبر فاستحب العمى على الهدى ، وتنكَّب الطريق .

(فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ) : أى فخرج عن طاعته سبحانه ـ قاله الفراءُ ، وأصله مِنْ فسق الرطب إذا خرج عن قشره ، وقيل معناه صار فاسقا كافرا بسبب أمر ربه . بمعنى أتاه الفسق لما أمر فَعَصَى : فعن للسببية ، وقيل ففسق عن رَدِّ أمر ربه بخروجه عن الطاعة ، فنى الكلام مضاف مقدر والفسق يقع على القليل والكثير من الذنوب ، ولكن تُعُورف فيما كان كثيرا ، وهو أعم من الكفر .

وذُكِرتْ قصة إبليس هنا لتشديد النكير عليه والتنفير منه ، تبعيدا عن المعاصى ، وعن امتثال ما يوسوس به ، وذلك لا يعد تكرارا مع ذكرها قبلُ ، حيث إن لها فائدة غير الفائدة التى كانت لذكرها قبلا وهى أنه سبحانه لما ذكر يوم القيامة والحشر ، وذكر خوف المجرمين ورهبتهم مما سُجِّل فى كتبهم من كل صغيرة أو كبيرة ، ناسب الإتيان بها تذكيرا لهم بأن إبليس اللعين هو الذى حملهم على المعاصى ، واقتراف الآثام ، واتخاذ الشركاء والأنداد ، فهم فى ذلك تابعون لتسويله وإغرائه كما ينبيءُ عنه قوله تعالى :

(أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ) : بهذا الاستفهام وبَّخ الله المشركين وأنكر عليهم بعد علمهم بقبائح الشيطان وأباطيله أن يستجيبوا له فيتخذوه وذريته أولياء وأعوانا لهم من دونه . مع أنهم لايجهلون حالهم من العداوة والبغضاء لهم ، والمراد من « ذريته » أعوانه وأشياعه ممَّن سلك طريقه فى الإضلال والإفساد مِنْ شياطين الجن والإنس ،وقال ابن عطية فى قوله : « وذريته » ظاهر اللفظ يقتضى الموسوسين من

الشياطين الذين يأتون بالمنكر ، ويحملون على الباطل ، ونقل الآلوسى فى تفسيره ، أن بعضهم قال : لا ولد له والمراد من الذرية الأتباع من الشياطين وعُبِّر عنهم بذلك مجازًا تشبيهًا بالأولاد . ا هـ .

وأعدل الأقوال وأسلمها فى المسألة قول القشيرى أبو نصر كما نقله القرطبي : إن الله أخبر أن لإبليس أتباعًا وذرية ، وأنهم يوسوسون إلى بنى آدم وهم أعداؤهم. ولا يثبت عندنا كيفيةٌ فى كيفية التوالد منهم وحدوث الذرية عن إبليس . فيتوقف الأمر فيه على نقل صحيح : ا هـ .وهو يتمثل ويتصور ، ويظهر ويختفى ، ويَرى من حَيْثُ لايُرى . فنى صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود قال « : إن الشيطان ليتمثل فى صورة الرجل فيأتى فيُحَدِّثهم بحديث الكذب . فيتفرقون يقول الرجل منهم سمعت رجلا أعرف وجهه ولا أعرف ما اسمه يُحَدِّث » . وفى التنزيل يقول الله تعالى : « إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَاتَرَوْنَهُم »[1] .

(بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا) : أى بئس البدل عن الله تعالى للظالمين : إبليس وذريته ، أو بئس عبادة الشيطان ، بدلا عن عبادة الله .

والالتفات من الخطاب فى قوله تعالى : « أَفَتَتَّخِذُونَهُ » إلى الغيبة فى قوله تعالى : « بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ » مع وضع الظاهر موضع ضمير المخاطبين ، ليشير اللفظ الظاهر إلى أن ما فعلوه ظلم قبيح يؤذن بأنهم أهل لشدة السخط ، وبالغ الازدراء .

(* مَآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾)

المفردات :

(مَا أَشْهَدتُّهُمْ): ما أريتهم . (عَضُدًا): العضد مابين المرفق والكتف من الذراع ، والمقصود هنا . المعين أو النصير .

(١) الأعراف : من الآية ٢٧

التفسير

٥١ـ (مَآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَاخَلْقَ أَنفُسِهِمْ) :

بعد أن أبرزت الآية السابقة موضع العجب من اتخاذ هؤلاء الظالمين إبليس وذريته أولياء لهم من دون الله أوضحت هذه الآية الكريمة عدم صلاحية إبليس وجنوده لأن يكونوا شركاء لله وأعواناً له ، كما بينت ضلال تابعيهم وغباءهم ، حين اتخذوهم أولياء لهم . والمعنى :

أن الله سبحانه هو الذى خلق السموات والأرض وما فيهما وحده ولم يهيئ لإبليس وذريته مشاهدة هذا الخلق ولا المشاركة فيه. حيث خلقت السموات والأرض قبل خلق إبليس وذريته فكيف جعلهم أتباعهم الظالمون أولياء لهم من دون الله ، وهم عاجزون عن الخلق والتدبير ولا يعلمون شيئا عن كيفية خلقهم وتدبير أمورهم فإنهم : « لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ .وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا »[1] .

(وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا) : ولا ينبغى لى – وأنا القوى العزيز– أن أحتاج إلى مُعِين أو نصير يساعدنى فى الخلق والتدبير من هؤلاء الضالين المضلين .

(وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَآءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾)

المفردات :

(مَّوْبِقًا) : أى مهلكًا يشتركون فيه وهو النار ، والموبق اسم مكان من وَبَقَ – كوثب – بمعنى هلك . (فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا) : الظن هنا بمعنى التوقع والعلم ، أى توقعوا وأيقنوا أنهم مخالطوها واقعون فيها ، ومثل ذلك قوله تعالى: « الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ »[2] . أى يوقنون أنهم ملاقوه . (مَصْرِفًا) : مجالا للانصراف أو الهرب والفرار .

(١) سورة الفرقان : الآية ٣ (٢) سورة البقرة : الآية ٤٦

التفسير

٥٢ - (وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَآئِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ) : واذكر لهم يامحمد يوم الجزاء الذى ينتظرهم طال الزمن أو قصر ، يوم يقول لهم العلىُّ الأعلى مؤنِّبًا لهم على اتخاذهم إبليس وذريته أولياءَ لهم من دونه - اذكر يوم يقول لهم - ادعوا شركاءكم الذين عبدتموهم من دونى لينقذوكم من العذاب المحيط بكم ؛ وفى هول الموقف ينادى الظالمون شركاءهم فلا يلبون نداءهم ولا يستجيبون لاستغاثتهم ، لأنهم فى مهلكهم مشتركون ، وفى جهنم خالدون ، فكيف يستجيبون ؟ ولهذا قال سبحانه :

(وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا) : أى وجعلنا بين الداعين من المشركين والمدعوين من الشياطين ، موبقًا ومهلكًا مشتركا وهو النار التى يصلونها جميعًا

٥٣ - (وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا) : وشاهد المجرمون النار فأيقنوا أنهم واقعون فيها لامحالة . قال صلى الله عليه وسلم : «إنَّ الكافر ليرى جهنم ويظن أنها مواقعته من مسيرة أربعين سنة ». رواه أحمد وابن جرير.

(وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا) : ولم يجدوا مجالا للهرب من هذا المصير الأليم قال تعالى : « وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ »[1] .

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾)

(١) سورة العنكبوت ، الآية ٥٤

المفردات :

(صَرَّفْنَا) : نَوَّعْنا ووضحنا . (من كُلِّ مَثَلٍ) : المثلُ الحكمة أو الموعظة .

(جَدَلًا) : مُمَاراةً ومخاصمة. (سُنَّةُ الأَوَّلِينَ) : أى طريقة الله فى المشركين السابقين ، والمراد بها العذاب الذى حل بالأُمم السابقة حينما أصروا على الكفر والعناد .

(قُبُلًا) : بضمتين جمع قبيل أى أنواعًا ، وأجاز أبو عبيدة أن يكون معناه مقابلة وعيانًا كقراءته قِبَلًا بكسْر ففتح ، فإن معناه كذلك عند ابن عباس .

التفسير

٥٤ - (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ . . .) الآية .

ولقد بينا ووضحنا فى القرآن الكريم من التوجيهات الرشيدة والمواعظ الحكيمة ، بطرق عديدة وأساليب متنوعة ، من القصص والعبر والحكم التى يثْبُتُ بها الحق فى الأذهان ، ولا تدعُ مجالا للشك والإنكار . وتملك على القارئِ مشاعره ، لأَنها فى الغرابة والحسن واستمالة النفس كالأَمثال ليتلقوها بالقبول ، فلم يمتثلوا .

(وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا) : وكان الإنسان منذ نشأته حسب فطرته ، أكثر شيء جدالا فى الدفاع عن رأيه بالباطل متلمسًا المعاذير التى يبرربها تصرفاته[1] ، إلا من عصم الله . أخرج الإمام أحمد والشيخان عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه طرق بيت على وفاطمة ليلا فقال : ألا تصليان ؟ فقال على : يارسول الله إنما أنفسنا بيد الله تعالى ، إن شاء أن يبعثنا بعثنا ، فانصرف حين قلت ذلك ، ولم يرجع إلىَّ ثم سمعته يضرب فخذه ويقول : « وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا » .

٥٥ - (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ...) الآية .

ساقت الآية الكريمة مثلا من أمثلة الإمعان فى الضلال واللجاج والجدال بالباطل ، مع وضوح الحق وأسباب الهداية .

(١) يذكر علماء النفس أن كل مخطئ يتلمس تبريرخطئه بما يسمونه «نظرية التبرير » وقد ساق القرآن الكريم أمثلة عديدة مما برر به المشركون عقائدهم وأعمالهم .

والمعنى : وما حمل الناس على ترك الإيمان بعد قيام أدلته ووضوح حجته ، إلا إصرارهم على العناد واللجاج ، وتحديهم للرسول صلى الله عليه وسلم أن ينزل بهم العقاب الذى توعدهم الله به ، كما أنزله بالأمم السابقة التى أصرت على الكفر والعناد ، وقد حكى الله طلبهم العذاب بقوله : « وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ »[1] .

(أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً) : أو يحل بهم العذاب الأليم عيانا جزاء إمعانهم فى الكفر والضلال فى صور شتى من النكال والوبال ،ويجوز أن يكون المعنى أن الله حال بينهم وبين الإيمان ، لأنهم غير أهل له بما جبلوا عليه من عناد ولجاج ، فقد انصرفوا عن دواعى الهدى والرشاد كما قال سبحانه : «ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ »[2]

(وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ۖ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾)

المفردات :

(لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ) : ليزيلوه ويبطلوه .

(أَكِنَّةً) : أغطية – جمع كنان .

(وَقْرًا) : ثقلا فى السمع ، يقال : وَقِرَت أُذُنُه وَقْرًا ، كفَهِم فهما إذا أصابها ثقل فى السمع أو صمم وَوَقَرَها الله وقرا من باب وَعَدَه وعْدا .

(١) سورة الأنفال ، الآية ٣٢.   (٢) سورة التوبة ، من الآية : ١٢٦

التفسير

٥٦ - (وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ) :

ومانبعث الرسل إلى الناس إلا لتبشيرهم بالمثوبة الحسنى إن آمنوا بالله وأطاعوه فيما شرعه لهم على ألسنتهم ، وإنذارهم بالعقاب الخالد إن كفروا به وعصوا رسله .

« لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ »[١] . فلم يبعثهم الله ليقترح أقوامهم الآيات عليهم بعد ظهور المعجزات التى أيدهم الله بها .

(وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ) :ولكن الكافرين يستقبلون دعوات الرسل بالإنكار والعناد والمكابرة والمجادلة بالباطل ، للقضاء على الحق بعد وضوحه ، دون استناد إلى دليل أو برهان ،كما قال سبحانه : « وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ »[٢] . ومن أمثلة هذا الجدل الباطل قول مشركى قريش فى القرآن الكريم :

« لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا ، إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ »[٣] . وقولهم فى الرسول صلى الله عليه وسلم : « لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ »[٤] . يعنون أن الرسول ليس من عظماء القريتين ، فلا يصح أن يكون رسولا أُنزل عليه القرآن .

(وَاتَّخَذُوا آيَاتِى وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا) :أى قابلوا آيات الله البينات بالسخرية والاستهزاء فقد سخروا بحديث القرآن الكريم عن شجرة الزقوم (راجع شرح الآية ٦٠ من سورة الإسراء) كما سخروا بالقرآن ، فزعموا أنه سحر وشعر وأساطير الأولين ، كما سخروا بوعيده بالبعث والنشور فقالوا : « أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا »[٥] .

٥٧ - (ومَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ) :

ولا أحد أشد ظلما لنفسه وللحق مِمَّن أعرض عن آيات الله البينات وانصرف عن أدلتها الواضحات إلى الباطل ، فأمعن فى ارتكاب الذنوب والآثام ناسيا ماجناه على نفسه وعلى الناس من بغى وعدوان .

(إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِى آذَانِهِمْ وَقْرًا) :إن الحق واضح ، وأصحاب العقول السليمة يدركون الرشد من الغى ويميزون الحق من الضلال ، والله سبحانه حال بين

(١) سورة النساء ،الآية : ١٦٥ (٢) سورة الحج ،الآية: ٨ (٣) سورة الأنفال ،الآية: ٣١
(٤) سورة الزخرف الآية ٣١ (٥) سورة الإسراء ،الآية: ٤٩

هؤلاء المشركين وبين الإدراك السليم ، فجعل على عقولهم أغشية كراهة أن يفهموه فهماً يؤدى بهم إلى السلوك السَّوِىِّ ، لأَنهم طبعوا على الخبث والضلال ، وجعل الله فى آذانهم صَمَماً عن الاستماع إلى الحقائق وإدراكها وذلك لانصرافهم عن الحق ، وتواصيهم بعدم سماعه ، حيث قالوا : «لَاتَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ»[1] ولهذا باعد الله بينهم وبين الإصغاء والاستفادة منه جزاء انصرافهم ، ولو علم فيهم خيرًا لهداهم وأسمعهم سماع قبول قال تعالى : «وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأَسْمَعَهُمْ ، وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ»[2]

والمقصود من جعل الله الأَكِنةَ على القلوب ، والوَقْر فى الآذان أن لا يأْخذ بقواهم العلمية نحو الحق لإعراضهم عنه .

(وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا) : وإن تدعهم إلى طريق الهدى فلن يستجيبوا لك ، لأَنهم الآن ليسوا أهلا للهداية ، ولأَن الهداية ليست بيدك ، وإنما هى بيدالله «لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ» وذلك حينما يحين أوان الهداية ، وقد هداهم الله إلى الحق فى فتح مكة فى السنة الثامنة للهجرة .

(وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾)

المفردات :

(الْغَفُورُ) :واسع المغفرة والصفح . (مَوْئِلاً) :ملجأً يلجئون إليه . (مَهْلِكِهِمْ) : هلاكهم .

التفسير

٥٨ ــ (وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ) : وربك ــ أيها الرسول ــ واسع المغفرة صاحب الرحمة ، حيث كتبها على نفسه فضلا وكرما ، فلا يعذب أحدا من عباده المحسنين الطائعين .

(١) سورة فصلت من الآية ٢٦ (٢) سورة الأنفال الآية ٢٣

«مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً»[١] . أما هؤلاء المشركون فهم الذين ظلموا أنفسهم بالإصرار على الكفر والعناد فاستحقوا سوء الجزاء ، ولكنه تعالى يتأنى بهم ، ولايتعجل معهم - كما قال :

(لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ) :أى أنه لسعة رحمته لو يؤاخذهم بظلمهم لعجّل عقابهم ، ولكنه أمهلهم لعلهم يرجعون إلى الصواب ، ويفيئون إلى الرشاد .

(بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلاً) : وهذا الإمهال موقوت بأجل معدود «وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ»[٢] .فإذا حان الأجل وهم مُصِرُّون على كفرهم وعنادهم أخذهم الله بعقابه الأليم حيث لايجدون ملجأً للنجاة والخلاص. «فَلَيْسَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ» .

٥٩ - (وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِداً) :

المراد بالقرى هنا أهلها ، والمعنى : وأهل تلك القرى المهلكة المعروفة ، من قرى عاد وثمود وقوم لوط عصوا ربهم ، وكذبوا رسله فأمهلهم لعلهم يؤمنون ، فلمَّا أصروا على الكُفر وأمعنوا فى الضَّلال أخذهم الله بعذاب الهلاك والاستئصال فى الموعد الذى حدده لهم « وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ »[٣] .

روى الشيخان والترمذى وابن ماجه عن النبى صلى الله عليه وسلم : «إنَّ الله تعالى ليملى للظالم حتى إذَآ أخذه لم يُفْلِتْه» .

قصة موسى والعبد الصالح

قصَّ اللهُ سبحانه علينا فى الآيات التَّالية قِصَّة موسىٰ والعبد الصالح وقد رأينا أن نقدم لها مايعين على إدراك أهدافها السامية :

(١) سورة النساء ١٤٧

(٢) سورة هود ١٠٤

(٣) سورة هود : الآية ١٠٢

(١) جمهور المفسرين على أن العبد الصالح هو الخضر ، وقيل اليَسَع وقيل إلْياس ، قال الآلوسى : والحق الذى تشهد له الأَخبار الصحيحة هو الأَول .

ولقب بالخضر ، استنادا إلى ماروواه الترمذى بسند صحيح عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم : «إنما سُمّىَ الخضِر لأَنه جلس على فروة بيضاء فاهْتزَّتْ تحته خضْراء» ومثل ذلك رواه البخارى بسنده .

(٢) قد يعجب بعض الناس من أن يحْتاج موسى وهو كليم الله ورسوله إلى مَنْ يتعلَّم منه العِلم ، وليس هذا موضع عجب فإنَّ الله « يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ »[1] لحكم يعلمها .

روى الشيخان والترمذى عن سعيد بن جبير قال : « قلت لابن عباس إن نوفلا لبكالى يزعم أن موسى صاحب الخضرِ ليس هو موسى صاحب بنى إسرائيل فقال : كذب عدوُّ الله ، حدَّثنى أُبَىٌّ بن كعب أنه سمع النبىَّ صلى الله عليه وسلم يقول : «إن موسى قام خطيبا فى بنى إسرائيل فسُئِل : أَىُّ الناس أَعلم ؟ قال : أنا . فعَتب الله عليه إذْ لم يَرُدَّ العلم إليه ، فأَوحى الله إليه إنَّ لى عبْداً بمجمع البحرين هو أَعلم منك ، قال موسى : ياربِ فكيف لى به ؟ قال تأْخذ معك حوتا فى مِكْتل فحيثما فقدْت الحوت فهُو ثَمَّ ، فأَخذ حوتا فى مِكْتل ثم انطلق ومعه فتاه يوشع بن نون . . . . » وذكر الحديث ، والمكتل وعاءٌ مصنوع من الخوص يحفظ فيه المتاع .

(٣) كثير من العلماء يقولون إن الخضر - عليه السلام - حَىٌّ ، وقد أَجمع الصوفية على حياته إلى الآن كما نقله النووى عنهم ، وقد استدلوا بأَخبار غير مقطوع بها ، ومنها ما أَخرجه الدارقطنى فى الأَفراد بسنده عن ابن عباس أنه قال : « الخضر ابن آدم من صلبه ، ونُسِئ له فى أَجله حتى يُكذِّبَ الدجال » ومثله لا يقال من قِبل الرأْى .

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٠٥

وذهب جمع من العلماء إلى أنه ليس بِحَيٍّ اليوم ، سئل البخارى عنه وعن إلياس عليهما السلام – هل هما حيان – فقال : كيف يكون هذا وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : «لايبقى على رأس المائة مِمَّنْ هو اليوم على ظهر الأرض أحد» وفى صحيح مسلم عن جابر قال :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مامِنْ نفس مَنْفُوسَة يأتى عليها مائة سنة وهى يومئذ حية » كما استدلوا بأدلة نقلية وعقلية أخرى ، فارجع إليها فى الموسوعات ، والإمساك عن الخوض فى الخلاف بين الرأيين أولى ، مع الجزم بقصته مع موسى عليه السلام – كما جاءت فى هذه السورة .

(٤) اختُلِف فى الخضر ، فقيل هو نبي وليس برسول ، وهو قول الجمهور ، وقيل هو رسولٌ ، وقيل هو وَلِيٌّ ، وبه قال القشيرى ، ويستدل القائلون بنبوَّته ، بقوله تعالى فى شأنه : « آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا » والرحمة تطلق على الوحى والنبوة فى عدة مواضع من القرآن ، ولأن الله حكى عن قوله لموسى : «وَمَا فعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى » أى أن ماحدث منه كان بوحى من الله ، ولأن النبى لايتعلم إلاَّ من نبى ولا يصح أن يكون المتعلم فوق المعلم... إلخ .

(٥) وفى القصة توجيهات رشيدة :

(ا) أن لله حِكماً عالية فيما يقضيه من أُمور ، وهذه الحكم قد ندركها وقد تغيب عن عقولنا ، ولكننا ينبغى أن نؤمن بها كل الإيمان .

(ب) أن الهجرة فى طلب العلم مطلوبة ، روى مسلم بسنده عن النبي صلى الله عليه وسلم : « مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يلْتَمِسُ فِيهِ عِلْماً سَهَّلَ اللهُ لهُ بِهِ طرِيقاً فى الجَنَّة » .

(وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ
أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا
فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ
ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ
أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ
إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾
قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾
فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ
مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ
مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾
وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾)

المفردات :

(فَتَاهُ) : الفتى هو الشاب ، وأُضيف إلى موسى لأنه كان يخدمه ويتعلم منه .

(مَجْمَعَ البَحْرَيْنِ) : موضع التقائهما ولعل المقصود بهما التقاءُ خليج العقبة بخليج السويس أو التقاءُ أحد فروع النيل القديمة بالبحر الأبيض . (حقُبًا) : الحقب الدهر ، ومقداره ثمانون سنة ، كما قيل . (حُوتَهُمَا) : الحوت ؛ العظيم من السمك . ،

(سَرَبًا) : السرب فى اللغة النفق ، وسيأْتى تفسير المراد منه فى الآية .

(غَدَاءَنَا) : طعامنا فى الغُدْوة أى الصباح ومايُسَمَّى الآن بالفطور .

(نَصَبًا) : تعبًا ومشقة وجهدًا .

(عَجَبًا) : غريبًا عن العادة مخالفا لها يدعو إلى عجب الناس منه .

(فَارْتَدَّا عَلَىٰٓ آثَارِهِمَا قَصَصًا) : فرجعا يقصان أثر سيرهما السابق .

(آتَيْنَاهُ رَحْمَةً) : أى نعمة كبرى فيها رحمة منا وسيأتى فى الشرح بيانها .

التفسير

٦٠ ـ (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا) :

أبرزت الآيات السابقة لَجَاج الكفار وعنادهم وإصرارهم على الباطل ومُحَاولتَهمْ طَمْس الحقائق الواضحة التى ساقها الله لهدايتهم ، وفى هذه الآية والآيات التالية يضرب القرآن مَثَلاً ساميًا لنبى من أنبيائه ، أوحى الله إليه وكلمه تكليمًا ورزقه علمًا ومعرفة ، ومع هذا سعى جاهدًا ليتعلم ما لم يعلم ، وتحمَّل فى سبيل المعرفة ما تَحَمَّل من مشاق ، وهو موسى عليه السلام .

والمعنى : واذكر لهم يا محمد قصة موسى عليه السلام إذْ صَحب فتاه طالبًا لقاء العبد الصالح (الخضر) عليه السلام ليتعلم منه بعض ما لم يكن يعلم . وفتاه هو يوشع بن نون تابعه وتلميذه وخليفته من بعده كما ورد فى صحيح البخارى ومعهما مِكْتل[1] فيه حوت أَعَدَّاه للطعام وأخبر موسى فتاه أنه لايزال مُجِدًّا فى السير حتى يصل إلى مكان العبد الصالح فى مجمع البحرين ، ولعل المراد بمجمع البحرين التقاء خليج العقبة بخليج السويس أو أحد فروع النيل السبعة القديمة بالبحر الأبيض فى دلتا النيل ، وعلى أى حال فتحديد المكان لا يتعلق به كبير غرض .

وانطلق موسى مع فتاه وقد عقد العزم أن يواصل السير وإن طال الزمن حتى يبلغه .

٦١ ـ (فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا) :

أى فلما وصلا إلى موضع يَجْمَعُ بين البحرين نسيا حوتهما فاضطرب فى المكتل وقفز إلى الماء يشق طريقه فيه كأنما صنع الحوت لنفسه فى الماء نفقًا ، فقد صح من حديث الشيخين وغيرهما . « أن الله أمسك عن الحوت جرْيَةَ الماء ، فصار عليه مثل الطاق » قال الآلوسى : والمراد به : البناءُ المقوَّس كالقنطرة .

(١) وعاء مصنوع من الخوص يشبه الحقيبه يحمل التمر والطعام وغيرها فيه .

٦٢ ـ (فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا) :

فلما جاوزا المكان وأمعنا فى السير حتى الصباح شعَر موسى عليه السلام بالجوع والتعب فقال لغلامه آتنا طعام الغدوة (وهى الصباح) ليَشْبَعا من جوع ، ويستردَّا عافيتهما وينعما بالراحة بعد التَّعب .

٦٣ ـ (قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَآ أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ) :

قَالَ له الغلام : إنى نسيت الحوت عند الصخْرة وإن الحوت قفز إلى الماء .

(وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِى الْبَحْرِ عَجَبًا) : واتخذ فى الماء طريقًا عجيبًا كالنفق ، ونسبة الإنساء إلى الشيطان لأنه ربما شغله بوساوس عن الأهل والوطن ، جعلته يذهل عن هذه الحالة العجيبة بتقدير العزيز العليم ، وإلا فتلك الحالة لا تنسى .

٦٤ ـ (قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ) : قال إن فقدان الحوت إنما يكون عند التقاء البحرين وهو المكان الذى نريده حيث نلقى العبد الصالح .

(فَارْتَدَّا عَلَىٓ آثَارِهِمَا قَصَصًا) : ذكر البخارى فى باب التفسير : « رَجعا يقصان » . أىْ يَتَتَبَّعَان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة .

٦٥ ـ (فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا) :

أى فوجدا عند الصخرة التى نسى يوشع ما حدث من الحوت لديها ـ وجدا ـ عبدا صالحا من عباد الله آتاه رحمة كثيرة من عنده ، وعلَّمه علما لايكتنه كنهه من لدنه سبحانه وتعالى .

. واختلف فى الرحمة التى آتاه الله إياها ، فقيل هى الوحى والنبوة ، وقيل الرزق الحلال ، وقيل العزلة عن الناس وعدم الاحتياج إليهم ، وأما العلم اللَّدنىُّ فهو علم الغيوب والأسرار الخفية ، كما سيأتى بعضه فى قصته .

٦٦ ـ (قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٓ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا) :

تحكى هذه الآية أن موسى حين وجد العبد الصالح سأله الصحبة واتباعه بشرط أن يُعلمه مما علَّمه الله علما ذا رشد .

٦٧ - (قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا) : قال الخضر : إنك لو أردت الصبر - لما استطعت ، لأن ما يجريه الله على يدىَّ من الأُمور يَجْعَلك تسارع إلى الاعتراض عليه ، لخفاء حكمته عليك ، روى الإمام البخارى والترمذى فى حديث طويل بسند كل منهما يحكى فيه الرسول صلى الله عليه وسلم قصة لقائهما مع العبد الصالح ، وقد جاء فيه أنهما ، (انتهيا إلى الصخرة) ، فإذا رجل مُسَجًّى - أى مغطى - بثوب ، فسلم عليه ، فقال الخضر : وأنَّى بأَرضك السلام ؟ قال أنا موسى ، قال موسى بنى إسرائيل ؟ قال نعم . أتيتك لتعلمنى مما علمت رشدًا ، قال يا موسى إنك لن تستطيع معى صبرًا ، يا موسى : إنى على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت ، وأنت على علم من علم الله علَّمك الله لا أعلمه . . .) الحديث .

٦٨ - (وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا) : أى وكيف تصبر على مصاحبتى . وأنت ترى من الأُمور المخالفة لشريعتك ، ما لم تحط بأَسراره عِلْمًا ، يقول الخضر ذلك لأَنه كان يفعل أُمورا خفية المراد منكرة الظواهر ، مما يجعل موسى عليه السلام لا يتمالك إلا أن ينكر وقوعها عند مشاهدتها .

(قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾)

المفردات :

(صَابِرًا) : ضابطًا لنفسى حين أرى ما يقتضى الإنكار .

(فَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا) : فلا أُخالف ما تأْمرنى به .

(حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا) : حتى أُفسره لك دون سؤال منك .

التفسير

٦٩ - (قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِنْ شَآءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا) :

وعد موسى عليه السلام الخضر بأنه سيجده صابرًا على ما يراه مما أخفى عليه سببه ، وقرن ذلك بمشيئة الله ، لأن أفعال العباد مرتبطة بمشيئته تعالى ، كما وعده أن يلتزم طاعته فلا يخالفه فى أمر من الأمور ، وهذا ما ينبغى للمتعلم مع معلمه .

٧٠ - (قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْأَلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا) :

بعدأنوعد موسى صاحبه الخضر بأنه سيصبر على مايراه من الأمور الخفية الأسباب ، التى يجريها أمامه وأنه لا يعصى له أمرًا - لما حدث ذلك من موسى - أذن له الخضر بصحبته وأرشده إلى ما يقتضى دوامها بقوله : فإن اتبعتنى وصحبتنى فى رحلتى هذه فلا تسألنى عن شىء رأيته بعينك وأنكرته بقلبك ، واصبر حتى أحدث لك فى شأنه ذكرًا وبيانًا يفسر ما عُمى عليك من سببه .

(فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾)

المفردات :

(لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا) : أى لقد أحدثت منكرًا فظيعًا .

(وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا) : لا تحمّلنى من اتباعى لك مالا أطيق مما يشق علىّ حمله .

التفسير

٧١ - (فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا) :

جاء فى حديث البخارى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنهما « انطلقا يمشيان على الساحل فَمَرَّتْ بهما سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نوْل »[1] إلى أن قال : « فَلَمْ يُفْجَأْ مُوسَى إِلَّا وَقَدْ قَلَعَ لَوحَا بِالْقَدُوم ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى : مَا صَنَعْتَ ؟ قَوْم حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ ، عَمَدت إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا » ويحكى الله اعتراض موسى عليه ، بأسلوب موجز مستنكرًا ما فعل ، إذ يقول :

(قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا) :

وهنا نرى موسى عليه السلام ينسى ما عاهد عليه الخضر ويوجه إليه لومًا شديدًا ويقرر أن فعله هذا قد يفضى إلى إغراق السفينة بمن فيها ،وأنه قابل إحسان أصحابها بالإساءة.ويحكم عليه حكمًا قاسيًا-حسب ما بدا له-بأنه ارتكب ذنبًا عظيمًا قبل أن يستمع إلى سبب هذا الفعل.

٧٢ - (قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا) :

ذكَّره الخضر بالعهد الذى ارتبط به معه فقال له : لقد قُلت لك ما توقعتُ حدوثَهُ منك وهو أنك لن تستطيع الصبر على صُحبتى حينما ترى ما أفعله ،مما يخالف ظاهر شريعتك.

٧٣ - (قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا) :

اعتذر موسى عليه السلام للخضر بأنه نسى ما تعهد له به. والنسيان مَظِنَّة العفو ،وطلب إليه ألَّا يحمِّله فوق طاقته ، فإنه نبى والنبى لا يسكت عن أمر يراه خطيئة ؛ روى البخارى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «كانت الأُولى من موسى نسيانا »وورد فى هذا الحديث : « وجاء عصفور فوقع على حَرْفِ السفينة فنقر من البحر نقْرَة[2] فقال له الخضر : « ماعِلْمِي وعِلْمُك فى علم الله إلا مثلُ ما نقصَ هذا العصفور من هذا البحر »وقبل الخضِرُ عُذْرَ موسى وسارا فى طريقهما .

---

(١) أى بغير أجر .

(٢) هذا دليل على أن البحر كان ماؤه عذبا .

(فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ * قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾)

المفردات :

(غُلَامًا) : الغلام الصبي الذى لم يبلغ . (زَكِيَّةً) : طاهرة ، وفى قراءة « زَاكِيَة » . أى نامية أو طاهرة . (نُكْرًا) : منكرًا لا يقره العقل .

التفسير

٧٤ ـ (فَانْطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ) :

روى البخارى بسنده عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « . . . ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذْ أبصر الخَضِرَ غُلَامًا يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر رأسه فاقتلعه فقتله . . » .

(قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا) : لم يُطِقْ مُوسَى صبرًا على ما رأى من قتله الغلام فقال فى استفهام إنكارى :أقتلت نفسًا طاهرة بريئة دون أن ترتكب تلك النفس جريمة تستحق عليها القتل؟ثم أصدر عليه حكمًا حاسمًا بأنه ارتكب أمرًا خطيرًا منكرًا .

٧٥ ـ (قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا) :

نبَّهه الخَضِر عليه السلام إلى خروجه عمَّا عاهده عليه للمرة الثانية ، وأكد ذلك بزيادة الجار والمجرور (لك) أى إن هذا هو ما قلته لك لا لغيرك ، ولكنك لم تلتزم بما تعهدت لى به فى قولك : « سَتَجِدُنِيٓ إن شَآءَ اللهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا » .

روى البخارى عن النبى صلى الله عليه وسلم قوله : « وهذه أشد من الأولى . . » .

٧٦ـ (قَالَ إن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا) :

أدرك موسى خطأه فلم يجادل فيه ، ووعد بتحمل تَبعة اعتراضه عليه مرة أُخرى فقال للخضر عليه السلام : إذا اعترضت عليك فى أمر آخر فإن لك أن تفارقنى ولا لوم عليك فى ذلك ، بل لك العذر كل العذر فى ألا تصاحبنى ، وقبل الخضر عليه السلام اعتذاره ومضيا فى طريقهما .

(فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾)

المفردات :

(جِدَارًا) : الجدار ؛ الحائط .

(يَنْقَضَّ) : ينهار .

(أُنَبِّئُكَ) : أُخبرك .

(تَأْوِيلُ) : تفسير .

التفسير

٧٧ـ (فَانْطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا) :

أى فسارا فى طريقهما حتى حَلاَّ بإحدى القرى ـ يذكر بعض المفسرين أنها إنطاكية ـ وطلب من أهلها إعطاءهما طعامًا يأكلانه ، فرفض أهلُها إطعامهما شُحًّا وَبُخْلًا .

(فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ) : فرأيا فى القرية جدارًا يكاد يقع فهدمه الخضر ثم أعاد بناءه ، فعجب موسى عليه السلام من تصرف الخضر ، وما بذله من جهد فى هدم الجدار ثم إقامته ، لقوم بخلاء يضنون عليهم بالطعام [1] .

روى البخارى عن النبى – صلى الله عليه وسلم – قال : « فقال موسى : قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا . . . » ؟ ،

(قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا) :

أى لو أردت لطلبت من هؤلاء القوم أجرًا جزاء عملك .

ونلاحظ هنا أن موسى عليه السلام لم يعترض على الخضر ولم يصدر عليه حكما بالخطإ كما فعل فى المرتين السابقتين ، فقد استفاد من الدرسين الماضيين واكتفى هنا بقوله : لو أردت أن تنال أجرًا على عملك لنلته ، وعلق الأمر هنا على مشيئة الخضر وإرادته ، وهنا أدرك الخضر عليه السلام أن موسى قد استفاد مما مر بهما من أحداث ، وأثمرت التجربة ثمرتها المرجوة ، فأنهى الخضر لقاءه مع موسى عليهما السلام مبيناً له حكمة ماصنع مما لم يستطع موسى الصبر عليه .

٧٨ – (قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا) :

أى قال الخضر لموسى عليهما السلام ، بعد أن اعترض عليه لهدمه الجدار ثم بنائه لقوم بُخَلاء : حان لى فراقك وفقا لتعهدك ، ولكنى قبل الفراق سأُنبئك بتفسير ماقمت به من أعمال استدعت اعتراضك عليها ، لتدرك بواعث وأهداف هذه التصرفات ولكنك تعجلت فى الحكم عليها دون أن تدرك أسبابها وتقف على بواعثها .

جاء فى حديث البخارى عن هذه القصة بعد قول الخضر لموسى عليه السلام : « هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ... » الآية . أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « وَدِدْنَا أن موسى كان صبر فقص الله علينا من خبرهما » .

---

(١) والتعبير عن قرب سقوط الجدار بأنه يريد أن ينقض صورة بلاغية ، من باب الاستعارة المكنية التخييلية .

تنبيه وشكر للقراء الكرام

تم تفسير نصف القرآن عند الآية الثامنة والسبعين من سورة الكهف ، ويبدأ تفسير النصف الثانى بمشيئة الله من قوله تعالى حكاية عن الخضر : « أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِى الْبَحْرِ . . . » الآية ٧٩ .

وقد جاء هذا التفسير – بتوفيق الله تعالى – بعيدًا عن التعقيد خالياً من الإسرائيليات والفنيات الصعبة ، والأحاديث الموضوعة ، مع تحرى الدقة فى التعبير عن المعنى الأساسى للنصوص الكريمة بقدر الإمكان ، ولانبرىء نفوسنا من الخطإ أو التقصير – فالكمال لله وحده .

وحسبنا أننا بذلنا الوسع ، ومهدنا السبيل إلى فهم كتاب الله تعالى على الوجه الأمثل .

وتتألف لجنة التنسيق حالياً من السادة الآتية أسماؤهم – حسب ترتيب الحروف الهجائية – أصحاب الفضيلة :

(١) الشيخ السيد مصطفى شريف . (٢) الشيخ طه الساكت .

(٣) الشيخ عبد المهيمن الفقى . (٤) السيد الأستاذ على عبد العظيم .

(٥) صاحب الفضيلة الشيخ مصطفى محمد الحديدى الطير .

ويقوم الشيخ مصطفى محمد الحديدى الطير بمراجعة أعمال اللجنة بعد الفراغ من تنسيق كل حزب وتحقيقها ، تحرياً للدقة والصواب، وإبراء لذمة اللجنة ، وهو يباشر هذا العمل الدقيق منذ تفسير فاتحة الكتاب حتى الآن ، ولهذا ترى التفسير متقارب الأسلوب بقدر الطاقة .

ولقد أسعدنا قراؤنا الكرام فى العالم الإسلامى ؛ بإقبالهم المنقطع النظير على اقتنائه – فما إن يظهر منه حزب فى المكتبات، حتى تنفد عشرات الألوف من نسخه ، ولهذا نتقدم إليهم بالشكر الجزيل على هذا الإقبال ، ونسأل الله تبارك وتعالى أن يمنحنا مزيدًا من التوفيق فى تفسير النصف الثانى من كتابه ، وأن يجزى القراء عنا خير الجزاء ، وأن يوفقنا جميعاً لطاعته ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

رئيس اللجنة

مصطفى محمد الحديدى الطير

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الإدارة

محاسب / صــالح زكــريا

رقم الايداع بدار الـكتب ١٦٧٩ / ١٩٨١

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٢١٧٤ س ١٩٨٠ - ٢٥٠٠٤


Bibliotheca Alexandrina
0399100